روايات عالمية للجيب
49

بقلم : مارك توين
ترجمة وإعداد :
د. أحمد خالد توفيق



روايات عالمية للجيب

سلسلة جديدة ، تقدّم لك أروع ما يزخر به الأدب العالمي ، في مختلف صنوفه ..

من الألغاز البوليسية إلى الرواية الرومانسية ..

من عالم المغامرات إلى آفاق الخيال ..

من الفروسية إلى دنيا الأساطير ..

ومن الشرق إلى الغرب ..

وإلى الحضارة ..

وإليك ..

د. نبيل فاروق

المؤلف



تكلمنا بشيء من التفصيل عن (مارك توين) فى الكتيب رقم ١٨ من سلسلة (فانتازيا) ، وأغلب الظن أن من يقرءون الكتيب الحالى قد قرءوا الكتيب الآخر ؛ لكننا ـ من أجل من جاءوا متأخرين ـ نحكى بعض الأشياء عن أهم وأعمق وأظرف أدباء أمريكا .. وهذا الكلام ليس من عندى ، ولكن سبق أن قاله الأديب الأمريكى العظيم (إرنست هيمنجواى) .

(صمويل لانجهورن كليمنس) هو الاسم الأصلى له .. ولد فى ولاية (ميسورى) فى نوفمبر عام ١٨٣٥ ، وسرعان ما انتقلت أسرته إلى قرية (هانيبال) التى خلدها فى الأدب الأمريكى ، وتوفى أبوه وهو فى سن العاشرة ، ليبدأ الصبى كفاحه المضنى من أجل البقاء ، وهو الكفاح الذى رسم كل خط فى أدبه فيما بعد .. وأكثر شخصيات كتبه مارست الوجود فعلاً وقابلها فى مشوار حياته الشاق ..

عمل الصبى عامل طباعة ، ثم استجاب لحلم قديم طالما راوده ، هو أن يعمل على قارب بخارى فى نهر (المسيسبى) ، وكانت له مع النهر قصة حبّ خلدها فى كتابه (الحياة على المسيسبى) ..

بعد هذا حارب فى أثناء الحرب الأهلية عام ١٨٦١ ، وهى بدورها خبرة لم ينسها قط : « الحرب هى قتل مجموعة من الأغراب الذين لاتشعر نحوهم بأى عداء ، ولو قابلتهم فى ظروف أخرى لقدمت لهم العون أو طلبته منهم .. »

بعد انتهاء الحرب عمل فى الصحافة فى جريدة محلية بـ (فرجينيا) ، واتخذ اسم (مارك توين) وهو مصطلح بحرى معناه (عَمْ على اثنين) يعود لأيام الملاحة فى (المسيسبى) ..

كانت حياة (مارك توين) سلسلة من المصائب ؛ فهو الطفل المشاغب الذى لا يقول إلا ما يريده مهما كان قاسيًا أو مريرًا ، لذا ظفر بعداء الجميع .. وهو الاقتصادى الفاشل الذى يطارده الإفلاس فى كل لحظة ، وهو البائس الذى رأى أخاه يحترق فوق سفينة فى البحر ، حتى إن شعره شاب فى دقائق بعدها .. ولم تكن هذه آخر مآسى حياته ..

لقد مات ابنه الأول ، وتوفيت أعز بناته ، وتوفيت زوجته ..

كان لهذا أثره العجيب فى أدبه ؛ لقد ازداد سخرية ..

سخرية مريرة قاسية ، ولسان يصعب إسكاته مهما حاولت ، وبرغم هذا كله كان (توين) يحتفظ بالآراء الأكثر صراحة وقسوة لنفسه ، وكان يكتب فى كل موضوع كتابين : كتابًا يخفيه فى درجه ، وكتابًا يعرضه على الناس ..

وكانت شعبية (توين) تتزايد حتى إنه من الكتاب القلائل الذين كانوا يقدمون حفلات قراءة جماعية ، يشترى الناس التذاكر لها ، فقط كى يجلسوا فى مسرح كبير ليصغوا إلى (توين) وهو يتلو ما كتبه ..

إن قصصه هى مرآة صادقة شفافة للمجتمع الأمريكى .. شفافة إلى درجة أنها صارت عالمية ، وغدا الناس جميعًا يستمتعون بحق بأدب هذا الأديب العظيم ، مهما تباينت ثقافاتهم وألسنتهم ..

وفى عام ١٩١٠ توفى (توين) ، بعدما رأى - فى نفس الليلة - مذنب (هالى) يشق السماء ، وهو ذات المذنب الذى شق السماء ليلة ولادته ، وبشكل ما كان (توين) يتوقع ويرجو أن يمتد به الأجل حتى يراه مرة ثانية وأخيرة !

د./ أحمد خالد

أهم كتب (مارك توين) :

- الضفدع الوثاب من مقاطعة (كالافيراس) (١٨٦٥) .
- أبرياء بالخارج (١٨٦٩) .
- مغامرات توم صوير (١٨٧٦) .
- متشرد بالخارج (١٨٨٠) .
- الأمير والفقير (١٨٨٢) .
- الحياة على المسيسبى (١٨٨٣) .
- مغامرات هاكلبرى فان (١٨٨٤) .
- شمالى فى بلاط الملك آرثر (١٨٨٩) .
- نحو خط الاستواء (١٨٩٧) .
- الرجل الذى أفسد (هادلبرج) (١٨٩٩) .
- صلاة الجندى (١٩٠٥) .

المصادر :

- ديل كارنيجى : الخالدون . مطبوعات كتابى (٣) .
- فؤاد دوارة : هكذا كتبوا . الدار المصرية للتأليف والترجمة يونيو ١٩٦٦ .
- شبكة الإنترنت ..

ملحوظة :

يمكن للأصدقاء المهتمين بقراءة (مارك توين) بالإنجليزية أن يجدوا أكثر وأهم أعماله على عناوين الإنترنت التالية :

http :// www.ibiblio.org/ gutenberg/ cgi-bin/ sdb/ t9.cgi/ t9.cgi

http :// www.gutenberg.org/index/by-author/tw0. html

الرجل الذى أفسد (هادلبرج)

1

منذ أعوام طويلة ، كانت (هادلبرج) أكثر المدن استقامة وأمانة فى المنطقة .. وقد حافظت على هذه السمعة بلا تلوث لمدة ثلاثة أجيال . وكانت البلدة فخورًا بهذه السمعة إلى حد أنها كانت تعلم الأمانة لأجيال من أطفالها الرضع فى المهد .

ظلت الإغراءات بعيدة عن هؤلاء القوم ، مما جعل أمانتهم تزداد صلابة وقوة .. وكانت البلدان الأخرى تغار من هذا التفوق .. وإن راحت تقول إن هذا كله أمر تافه . لكن الجميع أجمع على أن (هادلبرج) مدينة غير قابلة للإفساد .. وأن قول أى شاب إنه من (هادلبرج) حين يفارقها بحثًا عن الفرص ، يعنى قبوله فى أى وظيفة ..

لكن حدث أن (هادلبرج) تسببت فى مضايقة غريب عابر .. والسبب هو أن (هادلبرج) كانت بلدة مكتفية ذاتيًا .. ولم تبال لحظة بآراء الأغراب .. وإن كان من الحكمة عمل استثناء لهذا الغريب بالذات ؛ لأنه كان من الطراز الذى يحتفظ بالمرارة فى قلبه ويحب الانتقام ، وقد أمضى عامًا كاملًا يفكر فى طريقة الانتقام .. وكانت أفضل خططه تؤذى على الأكثر عددًا غفيرًا من الناس .. لكنه كان يريد ..

خطة تؤذى البلدة كلها ، فلا يفر منها أحد .. فى النهاية ظفر بفكرة موفقة ..

قال لنفسه وهو يضحك ضحكة شيطانية :

ـ « هذا هو ما سأفعله .. سأفسد أخلاق البلدة .. »

بعد ستة أشهر ، ذهب إلى (هادلبرج) .. وصل إلى بيت محاسب المصرف حوالى الساعة العاشرة مساءً .. كان يحمل حقيبة يتعثر بها وهو يقطع الفناء الخلفى للكوخ ، ثم قرع الباب ..

جاء صوت امرأة يقول :

ـ « تعال .. »

فتح الباب ودخل ليضع حقيبته جوار الموقد ، ثم قال للعجوز التى تقرأ (مؤرخ الإرساليات) جوار المصباح :

ـ « هل لى أن أقابل زوجك لدقيقة يا سيدتى ؟ »

ـ « لا .. إنه فى (براكستون) ولن يعود إلا فى الصباح .. »

ـ « لا مشكلة يا مدام .. فقط أريد أن أترك هذه الحقيبة المغلقة بالأختام ليُعطيها لمالكها الأصلى حين نجده .. أنا مجرد غريب .. ومهمتى الآن قد تمت فى فخر ورضا .. سوف أرحل ولن تسمعى عنى ثانية ، وكل شىء مشروح بالتفصيل فى المذكرة المثبتة على الحقيبة .. »

كانت المرأة خائفة من الغريب ، لكن حين رحل غلبها الفضول ففتحت المذكرة :

- « هذه الحقيبة تحوى عملات ذهبية وزنها 160 رطلاً وأربع أوقيات(*) .. »

هرعت المرأة - مسز (رتشاردز) - تغلق الباب والستائر ، وأصغت قليلاً إلى صوت اللصوص ثم عادت تقرأ المذكرة :

- « أنا غريب .. ولسوف أعود إلى وطنى ، لكنى مدين لـ (أمريكا) بما حصلت عليه وأنا تحت علمها .. لقد قدمت لى (هادلبرج) خدمتين ..

« الأولى هى أننى كنت مقامرًا .. أقول (كنت) .. وصلت القرية ليلاً جائعًا مفلسًا .. كنت خجلاً من أن أتسول ، لكنى فعلت ذلك فى الظلام .. وكان هناك رجل أعطانى عشرين دولارًا .. بمعنى آخر أعطانى الحياة .. لأننى بهذا المال قامرت وكونت ثروة وبدأت حياة جديدة ..

« ومع العشرين دولارًا ، أعطانى نصيحة خالدة لم أنسها قط .. لكنى لن أقامر ثانية ..

(*) حوالى 73 كيلو جرامًا

« أنا لا أعرف هذا الرجل ، لكنى أريد أن تجدوه .. وأن يأخذ هذا المال ليصرفه أو يبدده أو يدخره كما يريد .. أنا مطمئن إلى أمانة هذه البلدة ، وأعرف أن بوسعى الثقة بها .. يمكنكم أن تجدوا هذا الرجل عن طريق ملحوظة قالها لى فى تلك الليلة ..

« أقترح أن تجروا التحريات بشكل شخصى .. اكتبوا محتويات هذه الرسالة لكل من تعتقدون أنه الرجل الذى ساعدنى .. فإذا جاء من يقول إنه هو الرجل ، فاسألوه عن الملحوظة التى قالها لى .. إنها مكتوبة فى المظروف داخل الحقيبة .. لو كانت هى الملحوظة ذاتها فالرجل هو .. أما لو فضلتم أن تعلنوا الأمر ، فانشروا الرسالة فى الجريدة .. واطلبوا من المرشح أن يظهر فى قاعة اجتماعات البلدة فى الثامنة مساء يوم الجمعة بعد ثلاثين يومًا من الآن ، ويقدم ملحوظته فى خطاب مغلق موجه إلى المحترم مستر (بيرجس) - لو وافق كريمًا على المشاركة - ودعوه يحطم الأختام ويفتح الحقيبة ، ليرى إن كانت الملحوظة صحيحة .. فإن كانت صحيحة أعطوا المال لصاحبه مع جزيل شكرى .. »

جلست مسز (رتشاردز) ترتجف من الإثارة ..

- « فقط لو كان زوجى هو الرجل المحظوظ .. نحن فقيران .. فقيران ومسنان .. »

ثم تنهدت وقالت :

- « لكن ليس عزيزى (إدوارد) من يفعل هذا .. ليس هو من يعطى غريبًا عشرين دولارًا .. لكن هذا مال قمار .. نقود خطيئة ! لانستطيع أن نلمسها .. لا أريد أن أكون بجوارها .. »

وابتعدت عن الحقيبة :

- « أتمنى لو جاء (إدوارد) وأخذها إلى المصرف .. فلو أن لصًا جاء الآن .. من المرعب أن أكون هنا مع هذه الأموال .. »

عاد زوجها فى الحادية عشرة ليقول لها :

- « أنا متعب جدًا .. أنا مجرد عبد لرجل آخر .. وهو مستريح فى بيته يلبس خفيه الدافئين .. »

- « أنا حزينة من أجلك .. لكن على الأقل لدينا اسمنا الطيب .. »

- « نعم يا (مارى) .. هذا كل شىء .. اغفرى لى .. بالمناسبة .. ما الذى فى هذه الحقيبة ؟ »

حكت له زوجته القصة كاملة .. فشعر بالدوار وقال :

- « ماذا نفعله ؟ هل نجرى مخابرات شخصية ؟ لا .. أعتقد أنه لا بد من إعلان الأمر .. سيجعل هذا كل القرى الأخرى تشعر بالغيرة .. لأنه ما من غريب يتهور هكذا إلا مع (هادلبرج) .. يجب أن أذهب إلى الجريدة الآن .. »

- « لا .. لا .. لا تتركنى هنا مع هذه يا (إدوارد) .. »

لكن زوجها كان قد ابتعد .. وبعد خطوات قابل رئيس تحرير الجريدة فناوله المذكرة ..

قال الرجل :

- « ربما تأخرنا يا مستر (رتشاردز) .. لكن سأرى .. »

عاد الرجل لزوجته .. وكان النوم مستحيلاً لأن السؤال المهم كان هو : من فى البلدة يمكن أن يعطى عشرين دولارًا لغريب .. لم تكن هناك إلا إجابة واحدة :

- « باركلى جودسان .. »

- « الجميع يعرف هذا .. منذ ستة أشهر حتى الآن والبلدة أمينة .. تحافظ على ممتلكاتها .. بخيلة .. »

- « هذا هو ما كان يقوله .. »

ـ « ولهذا كان الجميع يكرهه .. »

ـ « نعم .. لكنه لم يبال .. كان أفضل رجل مكروه بيننا .. باستثناء المحترم مستر (بيرجس) .. »

ـ « كان (بيرجس) يستأهل هذا .. ولن يحتشد لـه المصلون ثانية .. لكن أليس غريبًا أن يختار الغريب (بيرجس) لتسليم المال ؟ »

ـ « (مارى) .. ربما يعرفه الغريب خيرًا مما تعرفه القرية .. ليس الرجل سيئًا .. »

أصابت زوجته الدهشة :

ـ « هراء !! »

ـ « أعرف أنه ليس سيئًا .. لكن نقص شعبيته يعود إلى شىء واحد .. الشىء الذى أحدث كل هذه الضوضاء .. »

ـ « شىء واحد حقًا !! كأن هذا الشىء غير كاف .. »

ـ « (مارى) .. أؤكد بشرفى أنه كان بريئًا .. »

ـ « لا أصدق هذا وليس بوسعى .. فكيف تعرف ؟ »

ـ « يخجلنى أن أعترف .. كنت الرجل الوحيد الذى عرف

أنه برىء .. كان بوسعى إنقاذه لكنى لم أجرؤ .. كان الكل سينقلب ضدى .. لم يكن لدى من الرجولة ما يكفى لهذا .. »

فكرت الزوجة قليلاً .. كان الصراع مريرًا لكنها حسمته وقالت :

ـ « كنت سأمنعك على كل حال .. لكن ترى كيف يفكر فينا الآن ؟ »

ـ « هو ؟ هو لا يشك لحظة فى أنه كان بوسعى إنقاذه .. حين كانت القصة جديدة ملتهبة ، وكانت البلدة ستضعه على قضيب قطار وتطرده(*) ، لم يسمح ضميرى بهذا .. لهذا توجهت إليه وأنذرته .. من ثم غادر البلدة .. فترة كافية حتى هدأت الأمور وعاد .. »

ـ « لو أن أحدًا عرف .. »

ـ « كنت أموت رعبًا من هذه الفكرة ، ولهذا لم أخبرك حتى لا يفتضح الأمر على وجهك .. بعد فترة أيقنت أن أحدًا لن يشك فىَّ ، وبدأت أشعر بالسعادة من أجل ما فعلت .. »

عادا ثانية إلى لغز حقيبة الذهب .. وبدأت المحادثة تعانى

(★) عادة الغرب فى طرد المكروهين من البلدة .. وهى طريقة عجيبة مثلها مثل القطران والريش .

من وقفات ومقاطعات بسبب التفكير العميق .. فى النهاية غرق (رتشاردز) تمامًا فى التفكير وتدريجيًا بدأ يرتب أفكاره ..

فى نفس الوقت كانت زوجته غارقة فى الصمت ، وبدا عدم الراحة على حركاتها ..

فجأة نهض زوجها فاعتمر قبعته ، كأنما هو رجل يمشى فى أثناء النوم ، وغادر المنزل .. بينما جلست زوجته مكتئبة وكأنما لم تشعر قط أنه غادر المنزل .. ومن حين لآخر تغمغم :

- « لكننا فقيران جدًا .. من سيتأذى لو ؟ لن يعرف أحد .. ولكن ... »

ثم أفاقت من غيبوبتها ونظرت لأعلى ثم قالت فى مزيج من الرعب والسرور :

- « رحل ! لكن لربما تأخر .. لربما تأخر كثيرًا .. ربما لا .. ربما هناك وقت .. »

ووقفت تفكر وتطبق يديها وتفكهما ..

ركعت جوار الحقيبة وراحت تتحسس جوانبها فى حب .. بينما ظهر بريق فى عينيها العجوزين البائستين .. وكانت من حين لآخر تغيب عن العالم وتردد من دون انقطاع :

- « لو أننا فقط انتظرنا .. لو انتظرنا ولم نكن متعجلين بهذا الشكل .. »

فى الوقت ذاته عاد (كوكس) رئيس التحرير لداره وأخبر زوجته بالقصة ، واتفقا على أنه لا يوجد إلا رجل واحد فى البلدة يمكن أن يعطى غريبًا عشرين دولارًا هو (جودسان) ..

ظلت الزوجة شاردة قليلاً ثم قالت كأنما تكلم نفسها :

- « لا أحد يعرف بهذه القصة سوانا .. سوانا وآل (رتشاردز) .. »

خرج الزوج من شروده وحملق فى زوجته بكآبة ، ثم نهض فى تردد ونظر لقبعته .. ثم لزوجته فى نوعٍ من التساؤل الصامت . ابتلعت الزوجة ريقها وبدلاً من الكلام هزت رأسها .. بعد لحظة صارت وحدها تكلم نفسها ..

الآن يهرع (كوكس) و(رتشاردز) عبر الشارع المقفر من اتجاهين مختلفين ..

تقابلا لاهثين عند درج مكتب الطباعة .. وفى ضوء الليل الخافت قرأ كل منهما وجه صاحبه ..

همس (كوكس) :

ـ « لا أحد يعلم بهذا سوانا ؟ »

جاء الرد الهامس :

ـ « ولا مخلوق .. بشرفى .. ولا مخلوق .. »

ـ « ألم يتأخر الوقت كى .. »

كانا يصعدان فى الدرج ، هنا قاطعهما صبى ، فسأل (كوكس) :

ـ « هل هذا أنت يا (جونى) ؟ »

ـ « نعم يا سيدى .. »

ـ « لا تشحن البريد .. لا تشحن أى بريد .. انتظر حتى أخبرك .. »

ـ « لقد ذهب يا سيدى .. »

ـ « ذهب ؟ »

كان فى صوته رنين من خيبة الأمل التى لا توصف ..

ـ « نعم يا سيدى .. لقد تغير الجدول الزمنى لـ (بركستون) وكل البلدان القريبة .. »

لم يتكلم أى الرجلين لعشر دقائق .. ثم قال (كوكس) :

ـ « ماذا جعلك تتعجل بهذا الشكل ؟ »

كانت الإجابة بسيطة بما يكفى :

ـ « الآن أرى ذلك .. لكن لم أفكر قط حتى فات الأوان .. لكن المرة القادمة .. »

ـ « فلتذهب المرة القادمة للجحيم ! لن تتكرر الفرصة ولو بعد مليون سنة .. »

ثم افترق الصديقان دون تحية المساء ، وجرا نفسيهما كأنما هما رجلان منيا بفقد حبيب .. وفى كل بيت وثبت الزوجة صائحة : حسن ؟

ثم إنها رأت الإجابة على وجه زوجها .. من ثم غاصت فى المقعد شاعرة بالأسى ..

وفى كل بيت دارت مناقشات أكثر خشونة والتهابًا ..

قالت مسز (رتشاردز) :

ـ « لو أنك فقط انتظرت .. لو توقفت لتفكر .. لكن لا ..

لا بد من أن تجرى إلى مكتب الجريدة وتنشر الخبر للعالم كله .. »

- « كانت المذكرة تطالبنى بالنشر .. »

- « لا .. قالت تصرف بشكل شخصى لو أردت .. »

- « ربما .. لكنى فكرت فى الصخب الذى ستحدثه القصة ، والفخر الذى ستجلبه لـ (هادلبرج) .. »

- « أعرف هذا .. لكن لو أنك فقط توقفت لتفكر .. لعرفت أن الرجل المعنى ميت فى قبره بلا وريث .. ولما كان المال سيذهب إلى من يريده بقوة .. ولما كان أحد لن يتعذب .. »

ثم انفجرت فى البكاء فراح الزوج يبحث عما يهدئها ..

- « لقد كان هذا مكتوبًا أن ... »

- « مكتوبًا .. كل شىء مكتوب ؟ حين يبحث المرء عن مخرج لغبائه .. لم لا تفكر فى أنه كتب لنا أن نحظى نحن بهذا المال ؟ ومن أعطاك الحق فى تفسير إرادة السماء ؟ كان هذا خطأ .. كان هذا تفسيرًا تجديفيًا .. »

- « لكنك تعرفين يا (مارى) أننا تدربنا .. حتى صارت طبيعة ثانية لنا فى هذه القرية ألا نتساءل حين يكون هناك شىء يتعلق بالأمانة .. وها نحن أولاء نرى كيف تصدعت هذه الأمانة الصناعية عندما برز أول إغراء حقيقى .. »

- « (إدوارد) .. أنا مؤمنة أن أمانة هذه البلدة متعفنة مثل أمانتى .. مثل أمانتك .. إنها بلدة منحطة .. بخيلة .. بلا أية فضيلة سوى هذه الأمانة المزعومة .. أعترف لك بأننى مخادعة .. كنت كذا طيلة حياتى دون أن أعرف .. »

- « حسن يا (مارى) .. أنا أشعر بالشىء ذاته .. »

وساد الصمت .. فى النهاية قالت الزوجة :

- « أعرف فيم تفكر يا (إدوارد) .. »

بدا عليه الخجل وسمت من ضبط متلبسًا .. فقالت :

- « لا مشكلة .. كنت أفكر فى الشىء ذاته .. »

- « ليكن .. قوليها .. »

- « كنت أفكر ماذا لو أن أحدًا خمن محتوى المذكرة فى الحقيبة .. تلك التى تحوى الملحوظة التى قالها

(جودسان) للغريب .. سنقف مراقبين حتى يفتح المصرف فى الصباح ونضع الحقيبة فيه .. الآن لندخل الفراش .. »

- « لننام ؟ »

- « بل لنفكر .. »

فى الوقت ذاته كان آل (كوكس) قد فرغا من الجدل ، وراحا يفكران فى عمق فى محتوى الملحوظة التى قالها (جودسان) للغريب .. الملحوظة التى تساوى أربعين ألف دولار ..

أما السبب الذى جعل مكتب البرق فى البلدة مفتوحًا حتى هذه الساعة ، فهو أن مندوب جريدة (كوكس) كان يمثل وكالة (أسوشيتد برس) هنا .. نقصد أنه يمثلها فخريًا لأنه لم يكن ينجح إلا أربع مرات فى العام فى كتابة ثلاثين كلمة تقبلها الوكالة .. لكن هذه المرة كان الأمر يختلف .. لقد أرسلت له الوكالة تقول : أرسل القصة كاملة .. كل شىء .. 1200 كلمة ..

شعر الرجل بأنه أكثر الرجال فخرًا فى العالم ..

وفى الصباح التالى كان اسم (هادلبرج) - المدينة التى لا يمكن إفسادها - على كل لسان فى الولايات المتحدة .. وراح الناس يتناقشون حول الغريب وحقيبة الذهب .. وعن الكلمات المذكورة فى الرسالة ..

* * *

2

صحتْ (هادلبرج) لتجد نفسها شهيرة .. مذهولة ..

وخرج مواطنوها التسعة عشر الأهم يتصافحون .. يبتسمون .. ويقولون إن قواميس اللغة الإنجليزية ازدادت كلمة جديدة هى (هادلبرج) بمعنى (نزيه) ..

ركض الجميع إلى المصرف ليروا الحقيبة .. ثم بدأ الصحفيون يأتون ليروا الحقيبة ويكتبوا عنها من جديد .. والتقطوا الصور للكنيسة وقاعة الاجتماعات حيث سيتم الاختبار .. التقطوا صورًا للجميع حتى (جاك هاليداى) الصياد مرح الطباع قليل الكبرياء .. صديق الأطفال والكلاب الضالة ..

كل الوجوه كانت تبدى رضًا حالمًا .. وسعادة علوية .. ثم بدأ التغيير .. ببطء شديد ..

ربما ما كان أحد ليلاحظ التغيرات .. ما عدا (جاك هاليداى) الذى كان يلاحظ كل شىء .. لقد بدأ يلقى ملحوظات ضاحكة عن الناس الذين لا يبدون بذات السعادة كما كانوا أمس .. فى النهاية أعلن أن الناس يبدو عليهم الهم والشرود وانشغال البال ..

فى كل فراش كان أحد أعلام البلدة يقول لزوجته شاردًا :

- « ترى ما هى الملحوظة التى قالها (جودسان) ؟ »

فتهز زوجته رأسها وتقول :

- « لا تفعل .. ترى أية أشياء مريعة فى ذهنك ؟ أبعد الفكرة عنك بالله عليك .. »

ويتكرر الأمر فى الليلة الثانية والثالثة .. هنا تبدأ الزوجات فى الاعتراض بصوت أضعف فأضعف .. ثم تأتى الليلة التى يقلن فيها :

- « فقط لو استطعنا التخمين .. »

ويومًا بعد يوم كانت سخرية (هاليداى) لا تطاق .. لكنها كانت الضحكة الأخيرة فى البلدة المهمومة التى لم تعد فيها بسمة واحدة ..

وهكذا مرت ثلاثة أسابيع ولم يبق إلا أسبوع واحد ..

كان هذا يوم السبت بعد العشاء .. لكن شوارع المدينة كانت خالية بدلًا من المرح والتسوق ..

لقد جلس (رتشاردز) وزوجته العجوز فى الردهة .. تعيسين يفكران .. لقد صارت هذه عادتهما .. لقد ماتت ونسيت

عادتهما القديمة ليلاً فى الحياكة والقراءة والثرثرة الراضية أو زيارة الجيران .. لم يعد أحد يتكلم أو يزور الجيران .. كل القرية تجلس قلقة صامتة فى البيوت ..

تلقى (رتشاردز) رسالة فنظر لها نظرة عابرة .. ثم ألقى بها على المنضدة وعاد إلى آماله المحبطة .. بعد ثلاث ساعات تعبت زوجته وتأهبت للذهاب إلى الفراش دون مساء الخير .. ثم رأت الخطاب فرمقته بلا اهتمام ..

وكان زوجها جالسًا حين سمع صوت ارتطام .. هرع ليرى ما هناك ، لكن زوجته صاحت :

ـ « دعنى وشأنى .. أنا سعيدة جدًا .. اقرأ الخطاب .. اقرأه .. »

وفعل .. التهم الخطاب وعقله يتسارع .. كان الخطاب من ولاية بعيدة .. وكان يقول :

ـ « أنا غريب بالنسبة لكما لكن هذا لا يهم .. لقد وصلت لوطنى من المكسيك ، وعرفت بهذه القصة .. أنتما طبعًا لا تعرفان من قال تلك الملحوظة ، لكنى أعرف .. أنا الوحيد الذى يعرف ..



التهم الخطاب وعقله يتسارع .. كان الخطاب من ولاية بعيدة ..

« لقد كان هذا (جودسان) .. لقد عرفته جيدًا منذ أعوام .. لقد مررت بقريتكم فى تلك الليلة وكنت ضيفه حتى جاء قطار منتصف الليل .. سمعته يذكر تلك الملحوظة للغريب فى الظلام .. كان هذا فى زقاق (هال) ..

« لقد تكلم (جودسان) عن بلدتكم وعنكم .. وقد ذكر الجميع بالسوء فيما عدا ثلاثة كانت نبرته حسنة نوعًا بخصوصهم .. أقول (حسنة نوعًا) .. لا شىء أكثر .. هؤلاء الثلاثة أنت ضمنهم .. قال إنك فى يوم ما أديت له خدمة عظيمة .. وإنك لم تكن تعرف قيمتها ، وإنه لو كان يملك ثروة لتركها لك ولترك اللعنة لكل القرية ..

« إذن أنت وريثه الشرعى .. ومن حقك أن تحصل على الذهب .. وأنا أعهد فيكم آل (هادلبرج) الأمانة والصدق ، لذا سأذكر لك تلك الملحوظة وأنا مطمئن إلى أنه لو لم تكن أنت ، فإنك ستبحث عن الرجل المقصود ..

« الملحوظة التى قالها (جودسان) هى : أنت لم تنحدر إلى مرتبة الأشرار .. اذهب وأصلح نفسك .. »

« هوارد ل. ستيفنسون .. »

صاحت الزوجة :

« آه يا (إدوارد) ! أنا سعيدة جدًا .. لقد أردنا هذا .. إن المال لنا .. والآن أنت حر من (بنكرتون) ومصرفه .. لم تعد عبدًا لأحد .. أشعر بأننى أطير فرحًا .. »

وجلس الزوجان شاعرين بسعادة لم يظفرا بها منذ أيام الخطبة .. فقد صارت حياتهما روتينًا ثابتًا لا يتغير حتى جلب الغريب المال .. وقالت الزوجة :

- « أوه .. كم أن هذا حظ حسن أنك أديت هذه الخدمة لـ (جودسان) المسكين .. لم أحبه قط لكنى أحبه الآن .. ومن الجميل أنك لم تذكر هذا المعروف قط أو تتباهى به .. »

قال (إدوارد) مرتبكًا :

- « م م م .. (مارى) .. أنت ترين .. »

- « كف عن الغمغمة واحك لى يا (إدوارد) .. الكل يؤمن أنه كانت هناك روح واحدة كريمة فى هذه القرية ، والآن يتضح لى أن هذه الروح هى أنت .. لماذا لا تقول لى ؟ »

- « لكن يا (مارى) .. لا أقدر .. »

ـ « لماذا لا تقدر ؟ لماذا لا تقدر ؟ »

ـ « لأنه جعلنى اقسم ألا أتكلم .. »

نظرت له فى حدة :

ـ « جعلك تقسم ؟ لم تخبرنى بهذا ؟ »

ـ « وهل تحسبيننى أكذب ؟ »

وضعت يدها على رجله وقالت :

ـ « لا .. لا .. لقد ابتعدنا عن طبائعنا كثيرًا فليحمنا اللّه من هذا .. أنت لم تكذب فى حياتك .. لكن أشياء كثيرة تتهاوى من تحت أقدامنا الآن .. »

كان (إدوارد) شارد الذهن .. لأن عقله كان يحاول تذكر أية خدمة قدمها لـ (جودسان) على الإطلاق ..

وهكذا ظلا ساهرين .. (مارى) سعيدة مشغولة .. (رتشاردز) مشغول لكنه ليس سعيدًا ..

هل سبق له أن أدى خدمة لـ (جودسان) ؟ بالطبع .. هناك كلمات (جودسان) نفسه .. هى الدليل الذى لا يدحض .. إذن قد استقرت هذه النقطة ..

لكن (ستيفنسون) كاتب الرسالة لم يكن واثقًا تمامًا مما إذا كان (رتشاردز) هو من قدم الخدمة .. بل إن الأول واثق من أن (رتشاردز) لو لم يكن هو المقصود فلسوف يذهب ليبحث عن مقدمها الحقيقى ..

نقطة أخرى : كيف ظل اسم (رتشاردز) فى ذهن (ستيفنسون) كل هذه الأعوام ولم يخلطه باسم آخر ؟ هذا جميل .. كلما دققت فى الأمر وجدت أن هذا دليل كاف على أن (رتشاردز) هو من قدم الخدمة ..

هكذا قرر أن يتخلص من التفكير فى هذه المسألة ..

إنه مستريح الآن .. لكن هناك مشكلة أخيرة تلح عليه .. بالطبع هو قد قدم خدمة .. هذا مؤكد .. لكن ماذا كانت الخدمة ؟

يجب أن يتذكر وألا يخلد للنوم قبل أن يتذكرها .. لذا فكر وفكر .. لم يبد له أى احتمال معقولاً .. لم يبد له أى شىء يستحق المال الذى تمنى (جودسان) أن يتركه له ..

ما نوع الخدمة التى تجعل رجلاً ممتنًا إلى هذا الحد ؟ إنقاذ روحه ! لابد أنه كذلك ..

تذكر كيف حاول ذات مرة أن يغير شخصية (جودسان) ،

وكم جاهد لهذا .. بدا له أنه حاول ثلاثة أشهر .. لكن إذ فكر ثانية وجد أنها فترة شهر .. ثم أسبوع .. ثم يوم .. ثم لاشىء .. لقد تذكر الآن أنه نصح (جودسان) لكن الأخير نصحه بأن يذهب إلى الجحيم ولا يتدخل فيما لا يعنيه ..

إذن .. هذا الاقتراح فاشل .. إنه لم ينقذ روح (جودسان) ..

بعد قليل خطرت له فكرة أخرى .. هل أنقذ ممتلكات (جودسان) ؟ لا .. لم يكن لدى الرجل ممتلكات ..

هل أنقذ حياته ؟ لا .. وإلا لكان تذكرها ..

لكنه على الطريق الصحيح .. إن عقله يعمل بأفضل كفاءة له الآن ..

لذا - خلال ساعتين من التفكير المضنى - كان ينقذ حياة (جودسان) .. لقد أنقذها بكل السبل الممكنة .. وفى كل مرة كان ينقذ الرجل بشكل جيد ، ثم إذ يقتنع نفسه بأن هذا حدث فعلاً ، كان يقابل تفصيلاً عسيرًا يجعل الأمر مستحيلاً ..

مثلاً بالنسبة للغرق ، كان يغطس فى الماء ويجذب (جودسان) إلى الشط بينما جمهور غفير يهلل ويصفق .. لكن ما إن يبدأ فى تصديق أن هذا قد حدث ، كانت مجموعة

تفاصيل مزعجة تبرز له .. كانت المدينة ستعرف القصة .. وكانت (مارى) ستعرفها .. كان سيذكر كل التفاصيل بدلاً من أن تكون الذكرى « خدمة عظيمة لم تكن تعرف قيمتها .. »

وهنا تذكر أنه لا يستطيع السباحة على كل حال ..

لحظة .. هناك نقطة تناساها أو نسيها .. لابد من أن تكون الخدمة « خدمة عظيمة .. ولكنه لم يعرف قيمتها .. » هذا سيسهل البحث ..

منذ أعوام كاد (جودسان) يتزوج فتاة حسناء حلوة اسمها (نانسى هويت) .. لكن لسبب ما لم يتم التوافق ، وماتت الفتاة وبقى (جودسان) عزبًا .. وبمرور الوقت اكتسب المرارة واحتقار الجنس البشرى .. قبل موت الفتاة وجد أهل البلدة أو ظنوا أنهم وجدوا بعض الدم الزنجى فى عروقها .. وخيل لـ (رتشاردز) أنه هو من وجد هذا الدم الزنجى .. وخيل إليه أنه أخبر القرية .. وأن القرية أخبرت (جودسان) وبهذا نجا من الزواج بالفتاة .. وبهذا يكون قد أسدى له « خدمة عظيمة .. ولكنه لم يعرف قيمتها .. » بل فى الواقع « دون أن يعرف أنه أسداها .. » لكن (جودسان) عرف وذهب إلى القبر راضيًا راغبًا فى ترك ثروة لمنقذه .. كل هذا واضح ، وكلما فكر فيه بدا له أكثر وضوحًا ..

وهكذا حين أخلد لفراشه كان يذكر الأمر كأنما حدث أمس .. بل إن خياله صور له (جودسان) يشكره على هذه الخدمة ..

فى الوقت ذاته أنفقت (مارى) ستة آلاف دولار على بيت جديد لها ، ثم نامت ..

فى ذات الليلة أوصل ساعى البريد تسعة عشر خطابًا لمواطنى البلدة المرموقين .. ولم يتماثل مظروفان .. ولم تتماثل الخطابات بالداخل .. لكن الصيغة كانت واحدة .. وكلها بتوقيع (ستيفنسون) .. وقد فعل الجميع ما فعله (رتشاردز) .. حاولوا تذكر أية خدمة قاموا بها لـ (جودسان) .. بينما كانت الزوجات ساهرات ينفقن المال .. لقد أنفقت الزوجات 130 ألف دولار معًا ..

وفى الصباح لاحظ (هاليداى) رضا الزوجات وسرورهن .. ولم يجد تفسيرًا لهذا ..

حين قابل مسز (ولكوكس) لاحظ النشوة الهادئة فى عينيها .. فسأل نفسه :

ـ « هل رزقت قطتها بقطيطتين ؟ »

وسأل الطباخ عن هذا ، فلم يكن شىء من هذا .. لقد لاحظ الطباخ سعادتها وإن لم يجد لها سببًا ..

وحين رأى السعادة المزدوجة على وجه (شادبلى بيلسون) ، تأكد من أن أحد جيرانه قد كسر رجله .. لكن البحث أخبره أن هذا لم يحدث ..

أما السعادة على وجه (شيلبى) فكانت تقول بوضوح إن حماته ماتت .. لكن هذا كان خطأ آخر ..

أما (بنكرتون) .. فقد بدا كأنما عثر على عشرة سنتات حسب أنها ضاعت .. لكن لا .. وهكذا .. وهكذا ..

فى النهاية قال (هاليداى) لنفسه :

ـ « من المؤكد أن هناك تسعة عشر مواطنًا يحلقون فى السماء .. لا أعرف السبب .. »

كان هناك بنّاء من الولاية المجاورة ، قد أنشأ لنفسه عملاً فى هذه القرية غير الواعدة .. ولافتته معلقة منذ أسبوع .. لم يأته زبون واحد .. وكان الرجل من الطراز سريع القلق ، وقد ندم على أنه اختار هذه القرية .. لكن الآن تغيرت الأمور .. لقد جاءت له أكثر من زوجة اليوم تقول له :

ـ « تعال إلى دارنا يوم الاثنين .. لكن لا تقل شيئًا لأحد .. نحن نفكر فى البناء .. »

تلقى إحدى عشرة دعوة اليوم .. فى هذه الليلة كتب لابنته

وطلب أن تفسخ خطبتها مع خطيبها .. قال إنها تستطيع أن تظفر بعريس أعلى مقامًا بميل كامل ..

فكر آل ويلسون فى شىء جديد تمامًا : حفل راقص جميل .. لم يخبرا أحدًا بالحقيقة لكنهما قالا إنهما يفكران .. « لو أقمنا هذا الحفل فلسوف ندعوكم حتمًا .. »

وقال الناس بعضهم للبعض : « هذان مجنونان .. ليس لديهما المال الكافى لهذا .. »

بعض الناس لم يكتفوا فقط بالحلم بالإنفاق ، بل أنفقوا فعلاً ، واشتروا بيوتًا وأثاثًا وثيابًا وجيادًا .. ثم بدأ نوع من القلق على الوجوه ، وهو شىء لم يستطع (هاليداى) فهمه :

ـ « قطيطات آل (ولكوكس) لم تمت لأنها لم تولد قط .. لم تنقص الحموات .. ولم يكسر أحد رجله .. لم يحدث شىء .. فماذا استجد ؟ »

كان هناك رجل آخر متحير هو المحترم (بيرجيس) .. لأيام بدا له أنه كلما ذهب لمكان كان الناس يقتفون أثره ويراقبونه .. وكلما وجد نفسه وحده كان رجل يدنو منه ليدس مظروفًا فى يده ويقول :

ـ « يفتح فى قاعة الاجتماعات مساء الجمعة .. »

ثم يختفى كأنه مذنب .. كان يتوقع أن يكون هناك من يطالب بالحقيبة .. وإن كان يشك فى هذا لأن (جودسان) مات ، لكنه لم يتوقع أن يوجد كل هؤلاء المطالبين ..

وحين جاء اليوم المحدد كان معه تسعة عشر مظروفًا ..

★ ★ ★

3

لم تبد قاعة الاجتماعات فى المدينة بهذا البهاء من قبل ..

لقد تمت تغطية المنصة فى نهايتها بالأعلام ، ومتباعدة على الجدار كانت زينة من الرايات .. والأعمدة ملفوفة بالأعلام ، كل هذا لإبهار الغرباء والصحافة ..

كان المكان مزدحمًا .. تم احتلال الـ 412 مقعدًا مثبتًا والـ 68 مقعدًا إضافيًا والتى وضعت فى الممر بين المقاعد .. وكذا وضعت مقاعد على الدرجات .. وعلى المسرح تراصت بعض المقاعد على شكل حدوة حصان ، جلس عليها المراسلون شديدو الأهمية والذين جاءوا من كل صوب ..

كانت النساء فى ثياب باهظة الثمن نوعًا ، وإن بدا على النسوة اللاتى يلبسنها أنهن غير مستريحات كأنما لم يعتدن هذا .. وربما نشأ هذا الانطباع من عدم اعتياد البلدة على رؤية هاته النساء فى ثياب كهذه من قبل ..

تم وضع حقيبة الذهب على منضدة صغيرة فوق المنصة ، حيث يراها الكل ..

راح الكل ينظر لها باهتمام مشتعل .. اهتمام شغوف

يسيل لعابه .. اهتمام كئيب حزين .. إلا أن هناك تسعة عشر زوجًا كانوا ينظرون لها فى رفق وحب .. وراح الذكور منهم يرددون فى سرهم الخطب المرتجلة التى سيشكرون بها التصفيق والتهانى التى سيتلقونها حالاً ..

ومن آن لآخر كان كل واحد منهم يخرج ورقة صغيرة من جيبه ليراجع ما بها منعشًا ذاكرته ..

كان هناك كلام كثير ، لكن حين نهض المحترم (بيرجس) ووضع يده على الحقيبة ، كان بوسعه أن يسمع صوت الميكروبات وهى تمضغ طعامها .. فقد ساد المكان صمت تام .

حكى قصة الحقيبة الغريبة .. ثم راح يتكلم عن (هادلبرج) بحرارة .. التى عرفت بالأمانة والصدق .. وعن أن هذه السمعة هى مفخرة البلدة الوحيدة .. السمعة التى هى كنز لا يقيم بمال .. والذى جعلته العناية الإلهية أكثر أهمية .

وبالتالى صارت البلدة رمزًا دائمًا للنزاهة غير القابلة للإفساد (تصفيق) ..

ـ « ومن هذا اليوم إلى يوم الدين ، سيكون كل منكم مسئولاً عن نفسه وحارسها .. هل يقبل كل واحد فيكم هذه الثقة الغالية ؟ (موافقة صاخبة) .. إذن كل شىء بخير ..

انقلوا هذه الرسالة لأطفالكم وأطفال أطفالكم .. اليوم نقاؤكم فوق الشبهات .. فتأكدوا من أن يبقى كذا .. اليوم ليس بينكم من يرغب فى أن يلمس قرشًا لا يخصه .. تأكدوا من أن يبقى الأمر كذلك .. كونوا على هذا الشرف مقيمين .. (سنفعل ! سنفعل !) .. ليس هذا هو المكان المناسب لنقارن أنفسنا بالآخرين .. بعض هذه المجتمعات ينظر لنا بغلظة .. إن لهم طريقهم ولنا طريقنا .. لنكن بذلك قانعين .. (تصفيق) .. لقد انتهى كلامى يا أصدقاء ، وتحت يدى الآن اعتراف فصيح لرجل غريب عن مجتمعنا بما فى هذا المجتمع من فضائل .. وبفضله سيعرف العالم للأبد من نحن .. لا أعرف اسم هذا الغريب لكنى باسمكم أعلن له امتناننا .. وأطلب أن ترفعوا أصواتكم بالتأييد .. »

نهض الجميع مهللين واهتزت الجدران بالشكر لفترة لا بأس بها ..

ثم جلس الجميع ومد المحترم (بيرجس) يده إلى جيبه وأخرج منه قصاصة من ورق ..

راح يقرأ ببطء وبشكل مؤثر على حين راح الجالسون يصغون فى شبه غيبوبة إلى هذه الوثيقة السحرية ، التى تساوى كل كلمة منها سبيكة ذهب ..

ـ « الملحوظة التى قلتها للغريب المكروب هى : أنت لم تنحدر إلى مرتبة الأشرار .. اذهب وأصلح نفسك .. »

ثم قال :

ـ « الآن سنعرف ما إذا كانت هذه الملحوظة هى نفس تلك الموجودة فى الحقيبة .. فإذا ثبت هذا ـ وهو كذلك ـ فسوف تكون هذه الحقيبة ملكًا لمواطن من مواطنينا ، سوف يصير من الآن رمزًا للفضيلة التى جعلت بلدتنا شهيرة فى أرجاء الأرض .. مستر (بيلسون) !! »

تأهب الجميع للانفجار فى نوبة من التصفيق ، لكن على عكس هذا بدا كأنما الشلل ضرب الجميع ..

ساد الصمت العميق لدقيقة .. ثم تعالت موجة من الهمسات عبر المكان .. كلها بهذا المعنى تقريبًا :

ـ « (بيلسون) ؟ هلم ! هذه خدعة مفضوحة .. يعطى عشرين دولارًا لغريب ؟ (بيلسون) ؟ »

ثم لاحظوا شيئًا آخر .. لاحظوا أنه فى طرف القاعة وقف (بيلسون) وقد حنى رأسه .. وعلى الجانب الآخر وقف المحامى (ويلسون) فى الوضع ذاته ..

استدار الرجلان وتبادلا النظر .. وسأل (بيلسون) :

ـ « لم تقف يا مستر (ويلسون) ؟ »

ـ « لأن لى الحق فى ذلك .. ربما تتفضل أنت وتشرح للجميع لماذا تقف أنت ؟ »

ـ « بسرور يا سيدى .. لأننى كتبت هذه الورقة .. »

ـ « هذا تزييف وقح ! أنا كتبتها بنفسى .. »

هنا جاء دور (بيرجس) ليصيبه الشلل ..

لقد وقف ينظر نظرة خاوية إلى أول الرجلين ، ثم للآخر .. ولم يدر ما يفعله ..

قال المحامى :

ـ « أنا أسأل رئيس الجلسة أن يقرأ الاسم الموقع به على الورقة .. »

هكذا عاد لرئيس الجلسة وعيه ، وقرأ الاسم :

ـ « (جون أنتونى بيلسون) .. »

ـ « هكذا ! ماذا بوسعك قوله الآن ؟ وأى اعتذار يمكنك تقديمه لى ولهذا الاجتماع على التدليس الذى جربته الآن ؟ »

ـ « لا اعتذارات يا سيدى .. وإننى لأتهمك علنًا بالسطو على مذكرتى التى كانت مع مستر (بيرجيس) ، واستبدال نسخة وقعت عليها أنت بها .. لاتوجد طريقة أخرى يمكنك بها تخمين ما جاء فى مذكرتى .. أنا وحدى من بين الأحياء أعرف سر الكلمات .. »

كان من الممكن أن تحدث فضيحة ، وقد لاحظ الجميع أن كتاب الاختزال كانوا يدونون هذا كله بسرعة كالمجانين .. كان الكثير يصرخون (مقعد .. مقعد !!) ..

طرق المحترم (بيرجس) بمطرقته وقال :

ـ « دعونا لا ننس مقتضيات اللياقة .. لقد حدث خطأ .. لكن هذا كل شىء .. لو كان مستر (ويلسون) قد أعطانى مظروفًا وأنا أذكر الآن أنه فعل ، فهو مازال معى .. »

ثم مد يده فى جيبه ، وأخرج خطابًا وفتحه .. ثم نظر فيه مذهولاً قلقًا .. لوح بيده بطريقة ميكانيكية مندهشة ، وحاول أن يقول شيئًا ثم استسلم فتعالت الأصوات :

ـ « قل شيئًا .. اقرأه ! »

لذا بدأ يتكلم كمن يسير فى أثناء النوم :

ـ « الملاحظة التى قلتها للغريب التعس هى : أنت لم تنحدر إلى مرتبة الأشرار تمامًا .. اذهب وأصلح نفسك .. »

ودوت الصيحات : غريب ! مذهل ! ما معنى هذا ؟

قال (بيرجس) :

ـ « إن عليها توقيع مستر (ويلسون) ! »

هنا صاح (ويلسون) :

ـ « هذا ينهى الأمر .. كنت أعرف أن مذكرتى قد سرقت .. »

قال (بيلسون) :

ـ « سرقت ؟ سأعلمك كيف أنه لا أنت ولا أى شخص من نوعك يمكن أن يجرؤ على ... »

صاح رئيس الجلسة :

ـ « النظام أيها السيدان .. النظام ! أرجو أن تجلسا ! »

كان الجميع فى ذهول ، عندما نهض (تومسون) صانع القبعات .. كان يتمنى لو كان من التسعة عشر محظوظًا ، لكن رصيده من تجارة القبعات لم يؤهله ليكون مرموقًا .. قال :

ـ « سيدى .. هل لى أن أقترح أن كلا السيدين على حق ؟ لربما قال كلاهما ذات الكلمات للغريب ... »

هنا نهض الدباغ الذى كان حاد الطباع وقال :

ـ « طبعًا .. هذا قد يحدث مرتين فى كل مائة عام .. لكن المستحيل هو أن يعطى أى منهما عشرين دولارًا لغريب ! »

وتعالى التصفيق ...

قال الدباغ :

ـ « الآن سيدى هناك شىء أكيد .. أحد هذين الرجلين كان يتلصص على الآخر ويسترق السمع لأسراره العائلية .. وليس فى اقتراحى هذا ما يمس الروح البرلمانية بسوء .. إننى أرى أن كليهما جدير بهذا .. وأرى أنه لو كان أحدهما قد سمع الآخر يحكى القصة لزوجته ، فسوف نعرف هذا الآن .. »

جاء صوت يسأل :

ـ « كيف ؟ »

ـ « سهل .. كلاهما لم يذكر الملحوظة بنفس الكلمات .. كنتم ستلاحظون هذا لولا المشاجرات بين الورقتين .. »

ـ « ما هو الفارق ؟ »

ـ « كلمة (تمامًا) .. فلو أننا فحصنا الورقة فى الحقيبة لعرفنا مَن من هذين الدجالين .. (الهدوء يا سادة .. الهدوء) .. مَن مِن هذين المغامرين .. (النظام يا سادة .. النظام) ..

مَن من هذين السيدين (ضحك وتصفيق) .. يستحق أن يكون أول نصاب عديم الأمانة ينشأ فى مدينتنا .. التى ستصير جحيمًا له من الآن فصاعدًا ! »

مد المحترم يده فى الحقيبة وأخرج منها مظروفين مغلقين .. وقال :

ـ « أحد هذين يقول : لا يفحص إلا بعد قراءة كل المطالبات المقدمة للرئيس .. الآخر كتب عليه : الاختبار .. كتب فى الورقة : لا أريد الدقة الكاملة فى نصف الملاحظة الأول التى قالها لى المحسن .. لأن كلامها غير مهم ويسهل نسيانه .. لكن الكلمات الخمس عشرة الأخيرة مهمة جدًّا .. وما لم يذكر لك هذه الكلمات الأخيرة بدقة يمكنكم اعتبار المطالب نصابًا .. لقد بدأ المحسن إلى بأن قال إنه لا يعطى النصائح إلا فيما ندر .. لكن نصائحه عظيمة القيمة حين يعطيها .. والنصيحة التى قالها لى لن أنساها ابدًا : أنت لم تنحدر إلى مرتبة الأشرار تمامًا .. »

هنا تعالت الأصوات :

ـ « هذا يسوى الأمر .. (ويلسون) ! (ويلسون) ! خطبة .. خطبة ! »

هنا دق الرئيس على المنضدة وصاح :

ـ « نظامًا يا سادة ! النظام ! دعونى أكمل ! »

وحين عاد الهدوء واصل القراءة ..

ـ « اذهب وأصلح نفسك .. تذكر كلماتى .. لأن خطاياك ستجعلك تموت وتذهب إلى الجحيم أو إلى (هادلبرج) .. حاول أن تختار الخيار الأول .. »

ساد صمت عميق .. ثم بدأت سحابة من الغضب تخيم على الجالسين .. ثم بدأت السحابة تعلو ، وبدأ شعور من الابتهاج ، بدا كأنما كان يتوارى بصعوبة عظيمة ..

وحتى الغرباء والصحفيون رءوسهم ، وأخفوا وجوههم بأيديهم ، وحاولوا التماسك بقوة لا يمكن وصفها ..

ثم فجأة انفجر الجميع فى الضحك ، وحتى المحترم (بيرجس) لم يستطع التماسك أكثر .. واعتبر الحضور أنفسهم وقد تم إعفاؤهم من الرسميات ، وقرروا الاستمتاع بهذه المزية إلى أقصى حد .. وكان ضحكًا طويلاً لذيذًا أنهاه المحترم (بيرجس) .. الذى وجد هذه الكلمات الجادة :

ـ « لا جدوى من مداراة الحقيقة .. هذه المسألة عظيمة

الخطر .. إنها تعنى شرف بلدتنا .. إنها تصفع سمعتنا .. إن اختلاف الكلمات بين مستر (ويلسون) و(بيلسون) لأمر خطير لأنه يعنى أن أحد هذين السيدين أو كليهما ارتكب جريمة سرقة .. »

كان الرجلان يجلسان معدومى الحيلة ، لكن سماع هذه الكلمات جعل الكهرباء تسرى فيهما ، فقال الرئيس :

ـ « اجلسا .. »

فأطاعا ..

ـ « المشكلة الآن أن شرفيهما معًا فى خطر .. هل أتمادى فأقول إنهما فى خطر لا فكاك منه ؟ كلاهما لم يذكر الكلمات بالغة الأهمية .. »

ثم صمت حتى يستجمع الصمت تأثيره ، وأضاف :

ـ « هناك طريقة واحدة يحدث بها شىء كهذا .. إننى أسأل السيدين عما إذا كان بينهما تواطؤ ؟ »

ودوى صوت الناس يقولون :

ـ « قد ظفر بهما معًا .. »

لم يكن (بيلسون) معتادًا على الطوارئ لذا جلس معدوم الحيلة ، لكن (ويلسون) كان محاميًا .. فهب شاحبًا قلقًا وقال :

ـ « إننى أطلب مهلة حتى أشرح هذه القضية الأليمة .. يؤسفنى أن أقول ما سأقول لأنه سيسبب أذى لا يمكن إصلاحه لمستر (بيلسون) الذى طالما قدرته واحترمته .. والذى آمنت دومًا بأنه أقوى من أى إغراء .. لكن إنقاذًا لشرفى يجب أن أتكلم .. وأعترف ببعض العار أننى قلت للغريب كل ما ذكر فى ورقة الاختبار .. وحين قرأت الخبر فى الجريدة قررت أن أطالب بحقيبة الذهب ، فهذا حقى تمامًا .. يجب أن تفهموا أن امتنان الغريب لى ليلتها لم يعرف حدودًا .. لقد قال لى ليلتها إنه مستعد كى يرد جميلى ألف مرة .. لكنى لم أتصور قط أن يضعنى فى موقف حرج كهذا .. يجعلنى أردد كلمات تسىء لمجتمعى أمام قومى .. فى هذا الاجتماع الكريم ؟ كان هذا مستحيلاً .. كان المفترض أن يحوى اختباره فقط الكلمات المهذبة التى بدأت بها كلامى .. لو كنتم مكانى لتوقعتم الشىء ذاته .. لن تتوقعوا هذه الخيانة والإساءة .. لهذا بكل أمانة كتبت على

ورقتى الكلمات الخيرة الأولى التى تنتهى بـ (اذهب وأصلح نفسك ..) ثم نادانى أحدهم فتركت الورقة قبل أن أضعها فى مظروف .. »

ثم استدار ونظر ببطء إلى (بيلسون) وانتظر لحظة ثم قال :

ـ « أطالبكم بأن تلاحظوا هذا .. حين عدت لمكتبى كان مستر (بيلسون) يغادر بابى .. »

فى لحظة كان (بيلسون) على قدميه يصرخ :

ـ « هذه كذبة .. كذبة مشينة !! »

قال الرئيس :

ـ « اجلس .. مستر (ويلسون) هو الذى يتكلم الآن .. »

وشد أصحاب (بيلسون) الرجل وأجلسوه .. بينما قال (ويلسون) :

ـ « تلكم هى الحقائق البسيطة .. وحين عدت للمكتبة كانت المذكرة فى موضع مختلف .. لكنى لم أعلق أهمية على هذا .. إن احتمال أن يقرأ (بيلسون) خطابات الآخرين

أمر لم يرد لى ببال .. لأنه كان رجلاً شريفاً .. والآن أنا الرجل الوحيد فى العالم الذى يستطيع أن يقول لكم محتوى الورقة بشكل شريف .. لقد انتهت كلمتى .. »

لا شىء فى العالم مثل خطبة جيدة يقدر على إرباك الجهاز العقلى وإفساد عواطف جمهور غير مدرب على حيل الخطابة ..

وقد جلس (ويلسون) راضيًا عن نفسه بينما ارتجت القاعة بموجات التصفيق ..

وراح الأصحاب يصافحونه مهنئين ، بينما صرخوا فى (بيلسون) ولم يسمحوا له بكلمة واحدة ..

صاح المحترم :

ـ « ولكن دعونا نستمر يا سادة .. نستمر .. »

فى النهاية ساد صمت معقول .. وقال صانع القبعات :

ـ « وبِمَ نستمر يا سيدى ؟ لم يبق إلا تسليم المال .. »

وتعالت صيحات الناس :

ـ « هذا حق .. تقدم يا (ويلسون) .. تقدم .. »

وحمل بعض المتحمسين (ويلسون) على أعناقهم وتأهبوا لحمله إلى المنصة .. هنا تعالى صوت الرئيس :

- « النظام ! عودوا لمقاعدكم .. أنتم تنسون أن هناك ورقة يجب أن تقرأ .. »

ثم تذكر فقال :

- « نسيت .. ليس من حقى أن أقرأ هذه الورقة قبل مطالعة كل المطالبات .. »

ثم مد يده لجيبه وأخرج ورقة .. نظر فيها بعناية .. بدا عليه الذهول .. فصاح الناس :

- « ماذا هنالك ؟ تكلم .. »

قال :

- « الملاحظة التى قلتها للغريب هى : أنت لم تنحدر إلى مرتبة الأشرار .. اذهب وأصلح نفسك .. توقيع مستر (بنكرتون) مدير المصرف .. »

تحرر جحيم المرح من عقاله ، حتى أوشك الناس على

البكاء .. والصحفيون لم يعودوا يكتبون إلا (نبش فراخ) لا يمكن قراءته فى هذا العالم .. وهب كلب أفزعته كل هذه الضوضاء فراح ينبح ..

وتصايح الناس :

- « **نحن أثرياء !! رمزان للنزاهة !! حتى لو لم نحص (بيلسون) !** »

- « يا لـ (ويلسون) البائس ! لقد كان ضحية لصين !! »

هنا تعالى صوت المحترم يأمر بالصمت ، وأخرج ورقة جديدة وراح يقرأ :

- « الملاحظة التى .... وأصلح نفسك .. توقيع مستر (جريجورى بيتس) .. »

دوت الأصوات كالإعصار :

- « **أربعة رموز للنزاهة !!** »

نهض بعض الرجال التسعة عشر متجهين لممر الخروج ، لكن الأصوات تعالت :

- « **أغلقوا الأبواب !! لن يغادر أى رجل نزيه هذه القاعة !!** »

ـ « الملاحظة التى .... وأصلح نفسك .. توقيع مستر (سانجرز) .. »

ثم :

ـ « الملاحظة التى .... وأصلح نفسك .. »

ـ « من ؟ من ؟ »

ـ « (نيكولاس وتورث) ! »

وراح الرجال يرتجلون أغنية لشرف (هادلبرج) الذى لا يهتز ..

ـ « هلم .. استمر فى القراءة .. نحن ننال شهرة لاحدّ لها ! »

هنا نهض اثنا عشر رجلاً محتجين وقالوا إن هذه المهزلة أعدها مهرج منبوذ .. وهى إهانة لكل المجتمع .. بالتأكيد كل هذه التوقيعات مزورة ..

ـ « اجلسوا واخرسوا ! أنتم تعترفون ! سنجد أسماءكم فى هذه الأوراق !! »

نهض (رتشاردز) البائس ممسكًا بيد زوجته .. كان

رأسها محنيًا حتى لا يرى أحد أنها تبكى ، وبصوت متحشرج قال :

ـ « أصدقائى .. أنتم عرفتمونا جيدًا أنا وامرأتى .. طيلة حياتنا .. وأحسبكم أحببتمونا .. »

قاطعه رئيس الجلسة :

ـ « اسمح لى .. كل ما تقول حقيقى .. هذه المدينة تحبكما .. تحترمكما .. تعرفكما .. »

هنا صاح (هاليداى) :

ـ « لو كان هذا صحيحًا فليعلن الجميع هذا .. هلموا .. أعلنوا هذا !! »

نهض الجميع وواجهوا الزوجين العجوزين وتطايرت المناديل فى الهواء كعاصفة جليدية .. هنا واصل المحترم الكلام :

ـ « ما أردت قوله يا مستر (رتشاردز) أننا نعرف طيبة قلبك .. لكن ليس هذا هو الوقت المناسب لممارسة الإحسان تجاه المخطئين .. أنا أرى قصدك الطيب لكن لا يمكنك أن تطلب الرحمة لهؤلاء الرجال .. »

ـ « لكنى كنت ... »

- « أرجو أن تأخذ مقعدك يا سيدى .. يجب أن نفحص باقى الأوراق .. فهذا أبسط عدل بالنسبة للرجال الذين تم كشفهم .. فمتى تم هذا أعدك بأن نسمع ما تريد قوله .. »

جلس الزوجان .. وهمس الزوج فى أذنها :

- « من المؤسف أن نضطر إلى الانتظار .. سيكون العار أكبر حين يعرفون أننا كنا فقط نتوسل لأنفسنا !! »

- « الملاحظة التى .... وأصلح نفسك .. توقيع مستر (روبرت تيمارش) .. »

- « الملاحظة التى .... وأصلح نفسك .. توقيع مستر (أوسكار وايلدر) .. »

- « الملاحظة التى .... وأصلح نفسك .. توقيع مستر (إليفالت ويكس) .. »

وهكذا راح اسم بعد آخر يتلى .. وراح الناس يقضون وقتًا ممتعًا ما عدا التسعة عشر البائسين ..

وراح (رتشاردز) البائس ينتظر اسمه فى رعب ويعد الأسماء ..

اللحظة التى ينهض فيها ليكمل كلمته قائلاً :

- « حتى اللحظة نحن لم نقترف خطأ .. مضينا فى طريقنا واعتدنا الفقر .. بلا ولد يعيننا .. لقد تعرضنا للإغراء فزللنا .. الآن أنهض وأتوسل لكم ألا يقرأ اسمى فى هذا المكان العام .. هذه المرة الأولى التى أسمع فيها اسمى يلفظ من شفتين ساخرتين .. كونوا رحيمين بنا .. واجعلوا عارنا أقل ثقلاً .. »

همست (مارى) له :

- « انتبه .. اسمك هو القادم .. لقد قرأ ثمانية عشر اسمًا .. »

بحث المحترم (بيرجس) فى يده لدقيقة .. ثم قال :

- « يبدو أننى قرأتها جميعًا .. »

سقط الزوجان فى مقعديهما وقد كادا يفقدان الوعى من السرور ، وقالت (مارى) :

- « سبحان الله ! لقد فقدت ورقتنا .. ما كنت لأستبدل بهذا ألف حقيبة ذهب ! »

بينما تعالت الأناشيد لأمانة (هادلبرج) والثمانية عشر رمزًا نبيلاً فيها ..

هنا نهض (ونجيت) صانع السروج واقترح أن يحيوا « أنظف رجل فى المدينة .. المواطن المهم الوحيد الذى لم يحاول سرقة المال .. (إدوارد رتشاردز) .. »

وبالفعل حياهما الناس بحرارة ثم اقترح أحدهم أن يكون (رتشاردز) هو حامى حمى المدينة ورمز أمانتها .. وليقف بقوة يتحدى العالم الساخر فى وجهه ..

هنا صاح أحدهم :

- « ولكن .. من يأخذ الحقيبة إذن ؟ »

صاح صانع السروج :

- « طبعًا للثمانية عشر رمزًا .. كلهم أعطوا الغريب عشرين دولارًا والملحوظة .. من حقهم استرداد الدولارات مع الفوائد ! »

هنا فتح المحترم الورقة الباقية من أوراق الغريب :

- « لو لم يظهر من يطالب ، فإننى أرغب فى أن تفتحوا الحقيبة وتعهدوا بما بها من مال إلى المواطنين الأساسيين فى بلدتكم ، ليستعملوها فى أفضل السبل لتقدم مجتمعكم والحفاظ على سمعته بالنزاهة التى لا تفسد .. النزاهة التى ستضيف أسماؤهم لها بريقًا لا ينطفئ .. »

- « ملحوظة : يا مواطنى (هادلبرج) .. لم تكن هناك ملحوظة .. لم يكن هناك غريب فقير .. ولا ورقة بعشرين دولارًا .. كل هذه اختراعات .. دعونى أحك لكم القصة الحقيقية ..

- « لقد مررت ببلدتكم منذ زمن ما ، وتلقيت إساءة لم أستحقها .. أى رجل آخر كان سيقتل واحدًا أو اثنين منكم ويعتبر هذا هو العدل ، لكنى شعرت أن هذا غير عادل .. لأن الموتى لا يتعذبون .. وحتى هذا ما كان ليشبعنى .. أردت أن أؤذى كل رجل وامرأة فى هذه البلدة .. ليس فى أجسادهم بل فى غرورهم ..

- « لهذا عدت لكم متخفيًا .. كنتم صيدًا سهلاً .. كنتم مشهورين بالأمانة وكانت هذه قرة أعينكم .. كنز كنوزكم ..

لاحظت أنكم تبعدون عن الإغراء فعرفت من أين أهجم .. إن أضعف مخلوقات الله هى الفضيلة التى لم يتم اختبارها فى النار .. كانت خطتى هى أن أفسد (هادلبرج) التى لا تفسد ..

« أردت أن أصنع كذابين ولصوصًا من رجال لم يكذبوا فى حياتهم ولم يسرقوا مليمًا .. وآمل أن أسحق غروركم وأعطيكم شهرة من نوع جديد .. لو كنت قد نجحت فافتحوا الحقيبة وعينوا لجنة الحفاظ على سمعة (هادلبرج) .. »

تصايح الناس :

ـ « افتحوا الحقيبة ! فليتقدم الثمانية عشر رمزًا ! لجنة الدفاع عن سمعة (هادلبرج) !! »

وفتحوا الحقيبة فلم يكن فيها إلا قطع من الرصاص .. اقترح صانع السروج أن يتقدم الرموز ليأخذ كل منهم حقه من هذا الرصاص ..

ـ « (ويلسون) .. (ويلسون) .. أنت الأول ! »

قال (ويلسون) فى غضب :

ـ « اسمحوا لى أن أقول ودون اعتذار عن لغتى .. اللعنة على المال !! »

هنا قال صانع السروج :

ـ « أقترح سيدى الرئيس أن يتقدم الرجال لعمل مزاد بعشرين دولارًا على هذه الحقيبة .. على أن يعطى المال فعلاً إلى الرجل الأمين الوحيد فى هذه البلدة .. (إدوارد رتشاردز) .. »

وبدأ المزاد .. وتصاعدت الإثارة بينما العطاءات تتزايد .. حتى وصل المبلغ .. مدفوعًا بالتحدى .. إلى خمسين دولارًا .. ثم مائة ..

وهمس (رتشاردز) لزوجته :

ـ « (مارى) .. هل نسمح بهذا ؟ إنها هدية شرفية .. تقديرًا لشرفنا .. فهل أقبلها ؟ ماذا نفعل يا (مارى) ؟ »

وكان الثمن يرتفع حتى بلغ 250 دولارًا ..

قالت الزوجة :

ـ « (إدوارد) .. أنا .. لا أعرف .. لقد أفلتنا من إغراء وهذا إغراء آخر .. لكن .. فكر فى الأمر .. لا أحد يشك .. »

الآن صار ثمن الحقيبة ألفًا .. وهمست (مارى) دامعةً :

ـ « أوه .. فكر يا (إدوارد) .. نحن فقيران جدًا .. لكن .. تصرف أنت كما يحلو لك ! »

وجلس الرجل بضمير غير مستريح لكنه عاجز عن اتخاذ قرار ..

هنا نهض غريب له ملامح المخبر الهاوى ، وقال :

ـ « ما من أحد من الثمانية عشر يزايد .. هذا ليس مرضيًا .. لا بد من أن أغير هذا .. إن الضرورة الدرامية تحتم هذا .. يجب أن يشتروا الحقيبة .. بعضهم ثرى ويجب أن يدفع .. »

ثم إنه اشترك فى المزايدة .. وصارت الحقيبة له عند مبلغ 1282 دولارًا ...

تعالى الهتاف ثم توقف لأن الرجل قد وقف رافعًا يده :

ـ « أريد أن أقول كلمة وأطلب معروفًا .. إننى أهوى الغرائب ولى اتصال بهواة العملات عبر العالم ، لكن لدى طريقة ـ لو حظيت بموافقتكم ـ أقيم بها هذه الحقيبة بما يساوى ثمنها ذهبًا .. اضمنوا لى موافقتكم ولسوف أعطى بعضًا من أرباحى لمستر (رتشاردز) .. الذى أدركنا جميعًا مدى استقامته هذه الليلة .. سيكون نصيبه من الصفقة عشرة آلاف دولار ، وسوف أعطيه المال اليوم .. فقط أرغب فى استفتاء عام .. فلو حصلت على أكثر من ثلثى عدد أصواتكم لاعتبرت هذه موافقة .. اسمحوا لى أن أنقش على قطع العملة المزيفة هذه أسماء الثمانية عشر الذين ... »

تعالى التصفيق .. بينما هبت الرموز تحتج على هذه الإهانة .. وتهدد بأن ...

قال الغريب بهدوء :

ـ « أتوسل لكم ألا تهددونى .. أنا أعرف حقوقى ولم أعتد قط أن أخاف من التهديد .. »

هنا وجد الدكتور (هاركنس) الفرصة سانحة ، وكان من أثرياء المدينة .. ربما الأكثر ثراء هو ومدير المصرف .. وكان بين الرجلين سباق محموم .. كلاهما يحب المال ، ويملك أرضًا بلا حساب .. انحنى على الغريب وسأله همسًا :

ـ « ما الثمن الذى تدفعه للحقيبة ؟ »

ـ « أربعين ألف دولار .. »

ـ « سأعطيك عشرين .. »

ـ « لا .. »

ـ « قل ثلاثين .. »

ـ « الثمن هو أربعون ألف دولار .. ولا مليم أقل .. »

ـ « ليكن .. سنلتقى فى الصباح فى الفندق .. سأقابلك بشكل منفرد .. »

ونهض الغريب وقال للجمع :

ـ « أشكركم جميعًا على الموافقة على مطلبى .. لكنى سأنصرف الآن وإننى أرجو الرئيس أن يحتفظ بالحقيبة لى معه

حتى الغد .. وأن يعطى هذا المبلغ لمستر (رتشاردز) .. غدًا فى التاسعة سآخذ الحقيبة وسأسلمه باقى العشرة آلاف دولار فى داره .. »

ثم انصرف تاركًا الجمهور يتناقشون فى صخب .. ثم عادت الأغنية تتردد ..

* * *

4

وفى منزلهما كان علـى آل (رتشـاردز) أن يتحمـلا التهانى والمجاملات حتى منتصف الليل .. ثم بقيا وحيديـن .. جلسا صامتين حزينين .. فى النهاية قالت (مارى) :

ـ « هل تحسبنا نستحق اللوم ؟ »

ثم نظرت إلى رزمة المال الموضوعة على المنضدة .. لم يرد (إدوارد) ، ثم قال فى تردد :

ـ « لم تكن فى أيدينا حيلة .. كـان هذا مقدرًا لنـا .. كل شىء كان .... »

ـ « هل تنوى البقاء فى المصرف ؟ »

ـ « لا .. »

ـ « تستقيل ؟ »

ـ « فى الصباح .. نعم .. »

ـ « ليس قرارًا حكيمًا .. »

ـ « لم أكن أخشـى أن أترك أمـوال النـاس معـى فيمـا سبق .. أما الآن فأنا متعب يا (مارى) .. متعب .. »

فى التاسعة صباحًا طلب الغريب حقيبته .. وفى العاشرة تحدث معه (هـاركنس) بشكل شـخصى .. وحصـل الغريب على خمسة شيكات لحامله .. أحدها بمبلغ 38.500 دولار .. وضعه بعد انصراف (هـاركنس) فـى مظـروف مـع مذكـرة كتبها بيده ..

وفى الحادية عشرة انطلق إلى بيت (رتشاردز) .. طـرق الباب ففتحت له العجوز البـاب .. ناولهـا الشيك وانصرف دون كلمة ..

شهقت المرأة وقالت لنفسها :

ـ « بالتأكيد أنا أعرفه .. أمس بدا لى مألوفًا بشكل ما .. »

ـ « هل هو الرجل الذى جلب الحقيبة هنا ؟ »

ـ « أنا واثقة من ذلك .. »

ـ « إذن هـو أيضًـا (ستيفنسـون) المزيـف الذى تلاعب بالجميـع .. وأعتقـد أنه خدعنـا كذلـك .. إن هـذا المظـروف لايمكن أن يحوى باقى العشرة آلاف دولار ، حتى بأعلى قيمـة عملة ممكنة .. ولو كان بالمظروف شيك فلا جـدوى منـه .. شيك يحمـل توقيـع (ستيفنسـون) ؟ لقد فررنـا مـن الرجـل بمعجزة أمس وهو مصمم على أن يوقع بنا .. »

هنا صاحت الزوجة :

ـ « أوه يا (إدوارد) ! يا للسوء ! »

كانت تحمل الشيكات فى يدها ، وصرخت :

ـ « هلم أحرق هذا الشيك ! لا يجب أن نخضع للإغراء .. إنها لعبة كى يسخر العالم منا ! أعطها لى ما دام هذا ليس بوسعك .. »

وكان قد دنا من النار فرفع الشيك يدرس التوقيع ، هنا صاح :

ـ « أتقنينى يا (مارى) ! هذا الشيك صحيح ! إنه كالذهب ! عليه توقيع (هاركنس) .. والشيك لحامله .. »

ـ « ولكن لماذا يا (إدوارد) ؟ »

ـ « ربما كان الطبيب لا يريد أن ينتشر الموضوع .. ولكن ما هذه المذكرة ؟ »

كانت مكتوبة بخط (ستيفنسون) المزعوم .. وكانت تقول :

ـ « أنا رجل خائب الأمل .. إن أمانتك أقوى من أى إغراء .. لقد تصورت العكس لكنى كنت مخطئًا .. إننى أعلى من قدرك وبكل إخلاص .. هذه البلدة لا تستحق أن تقبل حاشية ثوبك ، وقد راهنت نفسى على أن هناك تسعة عشر رجلاً فاسدًا فى هذه البلدة .. لكنى خسرت .. »



وكان قد دنا من النار فرفع الشيك يدرس التوقيع ..

تنهد (إدوارد) وقال :

ـ « هذه كلمات كتبت بالنار .. بل وتحرق .. (مارى) .. إننى تعس بحق .. لو كنت أستحق هذه الكلمات الجميلة ، والله يعلم أننى حسبتنى أستحقها يومًا ما .. لاشتريت بالأربعين ألف دولار هذه الورقة .. »

ثم وضعها فى النار ..

جاءت رسالة فتناولها وفتحها .. كانت من المحترم (بيرجس) :

ـ « لقد أنقذتنى فى وقت عسير وأنقذتك أنا أمس .. كان الثمن كذبة لكنى قمت بها ممتنًا .. لا أحد فى القرية كلها يعرف كم أنت نبيل طيب .. أعرف أنه فى أعماقك لن تستطيع احترامى بسبب التهمة التى أحاطت بى ، لكنى على الأقل آمل أن تعرف أننى رجل لا ينسى الإحسان .

نجا مرة أخرى ! ووضع الورقة فى النار وقال :

ـ « (مارى) .. أتمنى لو كنت ميتاً .. أتمنى لو ... »

★ ★ ★

بعد أيام بدأت الانتخابات .. كانت هناك لافتة على شكل نسر ، تحمل على أحد وجهيها عبارة (أنت لم تنحدر إلى مرتبة الأشرار تمامًا) وعلى الوجه الآخر من النسر عبارة (اذهب وأصلح نفسك .. بنكرتون) .. وهكذا اختصرت الجريمة فى شخص واحد وضحك الناس كثيرًا ، وهكذا أيضًا كان الفوز فى الانتخابات من نصيب (هاركنج) ..

وكان ضمير الزوجين قد بدأ يهدأ بعد هذه الخطيئة .. لكنهما تعلما درسًا مهمًا هو أن الخطيئة تكون مرعبة إذا كان هناك احتمال ولو بسيط أن ينكشف أمرها ..

كانا يذهبان إلى الكنيسة كل أحد ليسمعا ذات المواعظ للمرة الألف ، حتى فقدت معناها بالنسبة لهما .. لكنهما فى هذه الأيام صارا يجدان المواعظ تلدغهما بالاتهامات .. كأنها موجهة خصيصًا لهؤلاء الذين يخفون خطاياهم عن الناس .. ثم كانا يفران بعد القداس هاربين من شىء لا يعرفان كنهه جيدًا ..

ذات مرة قابلا (بيرجس) من بعيد فهزا رأسيهما له لكنه لم

يجب .. لم يرهما ، لكنهما كادا يموتان قلقًا .. ما سر هذا التصرف وما معناه ؟

هل عرف (بيرجس) أن (رتشاردز) يعرف الدليل على براءته لكنه لم يجسر على إعلانه ؟

هل كانت صيغته فى الخطاب ساخرة حين قال (أعرف أنه فى أعماقك لن تستطيع احترامى بسبب التهمة التى أحاطت بى) ؟ نعم .. هى بالتأكيد ساخرة ..

ثم أين الورقة التى كتبناها ؟ هل يحتفظ بها ليهددنا بها فى وقت ما ؟

وفى منتصف الليل تم استدعاء الطبيب لأن الزوجين ليسا على ما يرام .. قال الرجل إن السبب هو الضغط العصبى الذى عانياه بسبب الثراء المفاجئ .. بعد قليل ازدادت الأخبار سوءًا .. إن الزوجين يخرفان بالفعل .. وقالت الممرضات إن (رتشاردز) كان يبحث عن مكان يخفى فيه شيكًا ..

أما اليوم فالأخبار أسوأ .. لقد أخفى الرجل الشيكات حتى

لا يحدث لها شىء ، لكن حين بحثوا عنها لم يجدوها .. لقد اختفت تمامًا .. وقال المريض للممرضات :

- « دعن الوسائد وشأنها .. ماذا تردن ؟ »

- « كنا نحاول .. »

- « لن تلمسن الشيك أبدًا .. إنما أرسله الشيطان لى .. كى يدفعنى إلى الخطيئة .. »

وبالفعل لم يظهر الشيك ثانية قط ..

لكن هلاوس الرجل تزايدت ، وبدأت الممرضات يتكلمن .. وقيل فى البلدة إن (رتشاردز) كان من المطالبين بالحقيبة ، لكن (بيرجس) حماه ولم يقرأ ورقته .. تعالت الأقاويل .. لكن المحترم (بيرجس) قال لهم إنه من السخف تعليق أهمية على هلوسة رجل سقيم ..

ثم تحولت الشكوك إلى إدانة صريحة ، وتخلت البلدة عن ثقتها الشديدة فى أمانة العجوز ..

بعد ستة أيام جاءت أخبار أخرى .. إن الزوجين يموتان .. وفى هذه الساعات صفا ذهن (رتشاردز) فأرسل فى طلب (بيرجس) .

قال (بيرجس) :

ـ « أخلوا الغرفة .. أحسب لديه ما يقوله فى خلوة .. »

ـ « لا .. أريد شهودًا ! أريدكم جميعًا أن تسمعوا اعترافى ! كذا أموت كرجل لا ككلب .. كنت نظيفًا بشكل مصطنع مثل الآخرين .. ثم سقطت فى قبضة الإغراء حين جاء .. وقعت أكذوبة وزعمت حقى فى الحقيبة اللعينة .. تذكر (بيرجس) أننى قدمت له خدمة وعرفانًا بالجميل ، أخفى طلبى وأنقذنى .. تعرفون التهمة التى أحاطت بـ (بيرجس) منذ أعوام .. كانت شهادتى وحدها تستطيع أن تبرئه من التهمة ، لكنى جبنت وتركته يواجه العار .. ثم بعدها فعل الشىء المبرر .. لقد ندم على إنقاذى وفضحنى .. »

ـ « لا .. أنا أقسم على هذا .. »

ـ « وأنا أسامحك من قلبى .. »

ولم يصل احتجاج (بيرجس) لأذنى المحتضر .. لقد مات الرجل دون أن يعرف أنه آذى (بيرجس) البائس مرة أخرى ..

فى الليلة ذاتها ماتت المرأة العجوز .. وجردت البلدة من آخر ما كان يستر مجدها القديم ..

لم يكن الحداد مبهرًا لكنه كان عميقًا .. وبقرار تشريعى سمح لـ (هادلبرج) بتغيير اسمها إلى (لا تحاول معرفته فلن أخبرك به) .. ولم يبق لها إلا خاتمها القديم .

* * *

المخبر العظيم

الجزء الأول

لا يجب أن نرتكب الخطأ حين يرانا الناس

1

المشهد الأول هو في الريف .. في فرجينيا .. والزمن هو العام 1880 .. كان هناك زوج وسيم نحيل وشابة ثرية .. قصة حب من أول نظرة وزواج سريع عارضه بمرارة أبو الفتاة الأرمل .

كان العريس هو (جاكوب فولر) في السادسة والعشرين من العمر ، من أسرة عريقة لكن لا صيت لها ، هاجرت من (سدجمور) طلبًا لصدقة الملك (جيمس) .. هكذا يقولون .. البعض بسوء نية والبعض لأنهم يعتقدون هذا .. العروس في التاسعة عشرة من عمرها جميلة ، فخور بدمها النبيل وتحب زوجها الشاب بحرارة .. فمن أجله ضحت برضا أبيها وتحملت عتابه ، وأصغت بإخلاص لتنبؤاته دون أن تهتز .. وغادرت المنزل دون أن تنال بركاته .

صباح اليوم التالي للزفاف ، كانت مفاجأة سيئة تنتظرها .. لقد أزاح زوجها ملاطفاتها جانبًا وقال :

ـ « اجلسي .. هناك ما أريد قوله لك .. لقد أحببتك .. كان هذا قبل أن أسأل أباك أن يمنحني يدك .. لم يكن رفضه سبب حزني ولكن ما قاله لك عني .. لا .. لا حاجة بك للكلام فأنا أعرف جيدًا ما قال .. أعرفه من مصادر موثوق بها .. قال إنني مراء خائن جبان .. وإن صفاتي مرسومة على وجهي .. وإنني قاس بلا رحمة .. أي رجل آخر كان سيذهب لبيته ويطلق عليه الرصاص ككلب ، لكني وجدت فكرة أفضل .. أن أجلله بالعار وأحطم قلبه .. كيف هذا ؟ عن طريق معاملتي لك .. سأتزوجك .. ثم ... تحلي بالصبر فلسوف ترين .. »

ومن هذه اللحظة ولمدة ثلاثة أشهر عانت الزوجة الشابة كل أنواع المهانة والعذاب التي استطاع عقل زوجها الخلاق أن يبتكرها .

لكن كبرياءها القوي جعلها تبقي متاعبها سرًا .. ومن حين لآخر يسألها زوجها :

ـ « لِمَ لا تذهبين لتخبري أباك ؟ »

ثم يبتكر المزيد من التعذيب .. ويسألها .. فتقول :

ـ « لن يعرف من فمي أبدًا .. »



وقيدها إلى شجرة على جانب الطريق ، وهى تصرخ وتقاوم ..
ضربها بالسوط على وجهها وأطلق كلابه عليها ..

وكانت تقول إنها ستتحمل لكن ليس إلى ما لا نهاية .. يمكنه أن يقتلها إذا أراد لكنه لن يحطمها ..

فى نهاية الأشهر الثلاثة ، قال بلهجة توحى بالشر :

- « جربت كل شىء إلا شيئًا واحدًا .. »

قالت له وهى تكور شفتيها فى تهكم :

- « جربه إذن .. »

فى تلك الليلة نهض فى منتصف الليل ، وقال لها :

- « انهضى والبسى ثيابك .. »

أطاعت كعادتها دون كلام ، فاقتادها إلى مسافة نصف ميل من البيت ، وقيدها إلى شجرة على جانب الطريق ، وهى تصرخ وتقاوم .. ضربها بالسوط على وجهها وأطلق كلابه عليها .. حتى مزقت ثيابها .

ثم إنه نادى كلابه وقال لزوجته :

- « سيجدونك خلال ثلاث ساعات من الآن .. سيراك الناس فى هذا المنظر المهين .. ولسوف يعم الخبر .. هل تسمعين ؟ وداعًا .. هذه آخر مرة ترينني فيها .. »

وابتعد ..

راحت تئن بينها وبين نفسها ..

- « إننى حامل منه .. فليجعله الله ذكرًا ! »

أطلق الفلاحون سراحها ، وكما هو طبيعى انتشرت الأخبار فى كل مكان .. وراح الرجال يبحثون عنه عازمين على شنقه دون محاكمة ، لكن الطائر كان قد هرب .. وحبست الزوجة نفسها فى دار أبيها وحبس هو نفسه معها .

لقد تحطم كبرياؤه .. وكذا قلبه .. لذا راح يتلاشى يومًا بعد يوم .. وحتى ابنته سرت حين أراحه الموت .

بعدها باعت العقار واختفت .

* * *

2

فى العام 1886 كانت هناك امرأة تعيش فى بيت متواضع قرب قرية منعزلة فى (نيو إنجلند) ، لا يرافقها إلا طفل فى الخامسة .

كانت تقوم بعملها بنفسها ، ولم تشجع أحدًا على أن يتعرفها ، فلم يكن لها معارف .. ولم يستطع الخباز ولا الجزار ولا كل من تعامل معها أن يخبر القرويين بشىء عنها إلا أن اسمها (ستيلمان) وطفلها اسمه (أرشى) .. من أين جاءت ؟ لم يستطيعوا معرفة هذا قط .. لكنهم قالوا إنها تتكلم كالجنوبيين ..

فى يوم قال (أرشى) لأمه :

- « ماما .. هل أنا أختلف عن الأطفال الآخرين ؟ »

- « حسن .. لا أعتقد هذا .. لم ؟ »

- « هناك طفلة سألتنى إن كان ساعى البريد قد مر .. فقلت نعم .. سألتنى منذ متى رأيته .. فقلت إننى لم أره قط وإنما شممت رائحته على الرصيف .. قالت إننى أحمق غبى .. فلماذا فعلت هذا ؟ »

شحب وجه المرأة وقالت لنفسها :

ـ « إنها علامة الولادة (الوحم) .. هدية كلاب الصيد حلت به .. »

واحتضنت الغلام بحرارة وقالت :

ـ « لقد اختار الله طريقنا .. »

كانت عيناها تلمعان بضوء وحشى .. وراحت أنفاسها تتسارع من فرط انفعال .. قالت لنفسها :

ـ « الآن فهمت السر .. لقد اتضح لى كل شىء .. »

وأجلسته فى حجرها وقالت له :

ـ « انتظرنى قليلاً حتى أعود يا بنى .. ثم سنعود للكلام عن الأمر .. »

ذهبت لحجرتها وأخذت من منضدة تجميلها بعض الأدوات وأخفتها .. مبرد أظفار على الأرض قرب الفراش .. ومقص تحت المكتب .. وفتاحة أوراق من العاج تحت خزانة الثياب .. ثم عادت له وقالت :

ـ « هناك بعض أشياء نسيتها وكان على أن أجلبها .. »

أسرع الصبى يقوم بما طلب منه .. ثم عاد بالأشياء فسألته :

ـ « هل كان هذا صعبًا يا عزيزى ؟ »

ـ « كلا يا أماه .. فقط مشيت حيث مشيت أنت .. »

خلال غيابه كانت قد فتحت بعض الكتب ومررت يدها على صفحة معينة من كل كتاب ، وحفظت الرقم فى ذاكرتها .. ثم أعادت الكتب لمكانها وقالت له :

ـ « قمت بعمل ما فى أثناء غيابك يا (أرشى) ... فهل تعرف ماذا كان ؟ »

جرى الصبى ليحضر الكتب التى لمستها ، وفتحها على ذات الصفحات .

أخذته الأم فى حجرها وقالت :

ـ « الآن أجيب عن سؤالك يا بنى .. بشكل ما أنت مختلف عن الآخرين .. يمكنك أن ترى فى الظلام وأن تشم ما لا يشمه الآخرون .. إنك تملك مواهب كلب الصيد .. وهى مواهب جمة النفع لكن عليك أن تبقى هذا سرًا .. فلو عرف الناس بالأمر لاعتبروك طفلاً غريبًا شاذًا ... ولأطلق عليك الصبية كافة الشتائم .. فى هذا العالم على المرء أن يكون مثل أى واحد آخر لو أراد ألا يجلب على نفسه الاحتقار أو الغيرة .. »

وعدها الطفل فى غير فهم ..

وطيلة اليوم ظل عقل المرأة يعد آلاف الخطط والمشاريع كلها خارقة شريرة .. لكنها أضاءت وجهها بضوء خاص .. بنيران جحيم غامضة .. لم تقدر على الجلوس أو القراءة أو النوم ..

جربت قدرات ابنها بعشرين طريقة مختلفة .. وكانت تفكر :

- « لقد حطم قلب أبى .. وجربت طيلة هذه السنين أن أحطم قلبه عبثًا .. الآن وجدت السبيل .. وجدت السبيل .. »

حين خيم المساء ، كان شيطان القلق مازال يستبد بها ..

لقد استمرت فى تجاربها وأخفت أشياء عديدة فى البيت .. وأرسلت ابنها فى الظلام ليأتى بها .. وكم كان فخره حين أطرت عليه ولاطفته معبرة عن إعجابها .

منذ هذه اللحظة صار للحياة وجه جديد .. وقالت لنفسها :

- « إن المستقبل مأمون .. يمكننى أن أنتظر ، وأستمتع بالانتظار .. »

عادت للموسيقا والرسم وكل المباهج التى أهملتها .. ومن جديد استعادت مسرات الحياة ..

مرت الأعوام وهى ترقب نمو الصبى راضية ..

لكن الجزء اللين من قلبه كان أكبر من الجزء الصلب .. كان هذا عيبه الوحيد .. لكنها قدرت أن هيامه بها سيعوض هذه النقطة .. كان يعرف كيف يكره وقد طمأنها هذا قليلاً ..

مضت الأعوام ، وصار (أرشى) شابًا رياضيًا وسيمًا .. معتزًا بكرامته .. تسرك رفقته .. يبدو أكبر من عمره الذى هو السادسة عشرة ..

ذات ليلة أخبرته أمه أن لديها شيئًا خطرًا تقوله له .. قالت إنه صار كبيرًا بما يكفى كى يسمع ما ستقول ، وكى ينفذ الخطة التى رتبتها بصبر ..

ثم أخبرته القصة المريرة بفظاعتها .. وشل الفتى للحظات بينما قالت :

- « نحن جنوبيان .. وليس لدينا إلا شىء واحد نعوض به ما حدث .. أن نجده ونقتله .. نقتله ؟ كلا .. الموت راحة .. الموت تحرر .. الموت معروف وأنا لن أسدى له معروفًا .. لا يجب أن تؤذى شعرة من رأسه .. »

قال الفتى بعد تفكير :

- « أنت كل العالم بالنسبة لى .. ورغباتك هى القانون .. قولى ما على أن أفعله .. »

لمعت عيناها بالرضا وقالت :

- « ستبحث عنه .. أعرف أين يختبئ منذ أحد عشر عامًا .. اقتضانى هذا خمس سنوات ومالاً كثيرًا .. إنه يستخرج الكوارتز فى (كولورادو) .. وأحواله المادية طيبة .. إنه يعيش فى (دنفر) واسمه (جاكوب فولر) .. أول مرة ألفظ فيها اسمه منذ تلك الليلة التى لا تنسى .. تذكر ! هذا الاسم كان سيكون اسمك لو لم أجنبك هذا العار وأهبك اسمًا آخر .. ستبعده عن مكانه .. ستصطاده .. ستطارده .. ستسمم حياته .. تملؤها بأهوال غامضة .. تملؤها بالتعب والتعاسة .. تجعله يشتهى الموت فلا يناله .. لن يعرف الراحة ثانية .. لن يهدأ باله .. لن ينام نومًا مريحًا .. ستطارده حتى تحطم قلبه كما حطم قلب أبى .. »

- « أمرك يا أمى .. »

- « أنا واثقة من هذا أى بنى .. كل شىء جاهز .. هنا خطاب اعتماد لرصيد مصرفى .. أنفق بحرية .. فلا يعوزنا المال .. ولو احتجت إلى أدوات تنكر فقد أعددتها لك .. »

وأخرجت من الدرج بعض الأوراق كلها تحمل هذه الكلمات بالآلة الكاتبة :

جائزة عشرة آلاف دولار

يعتقد أن رجلاً مطلوبًا فى الولايات الشرقية يقيم هنا بشكل مؤقت . فى عام 1880 قيد زوجته إلى شجرة على الطريق العام ليلاً وضربها بالسوط على وجهها ، وجعل كلابه تمزق ثيابها . ثم إنه هرب من البلاد . إلا أن أحد أقاربها قد بحث عنه سبعة عشر عامًا .. عناوين ..... والجائزة المذكورة أعلاه ستقدم لكل من يقدم عنوان المجرم لمن يبحث عنه .

وقالت لابنها :

- « حين تجده وتتعرف رائحته .. ستذهب ليلاً لتلصق هذا الإعلان على بيته .. سيكون هذا الإعلان موضوع كلام المنطقة كلها .. أترك له بضعة أيام حتى يبيع ممتلكاته بسعر معقول .. سنخربه بالتدريج .. حتى يقنط ويموت .. »

ثم أخرجت أوراقًا أخرى كتب عليها :

إلى (جاكوب فولر) :

لديك .... يوم كى ترتب أمورك . لن يضايقك أحد حتى تنتهى المهلة فى .../..../..... وبعدها يجب أن ترحل . ولو بقيت حيث أنت بعد الوقت المذكور ، سأعلق على كل جدران المدينة قصة جريمتك كاملة مع الأسماء والتواريخ . لقد جلبت الموت لرجل عجوز وحطمت قلبه ، ولسوف تعانى ما عاناه .

وقالت لابنها :

- « لا توقيع .. يجب أن يتلقى هذه قبل أن يعرف بإعلان الجائزة .. حتى لا يجن ويغادر المكان فى الحال .. »

- « لن أنسى .. »

- « سوف يطيع الأوامر .. هذا أكيد .. »

★ ★ ★

3

من الخطابات الموجهة للأم :

دنفر - 3 إبريل 1897

منذ أيام أعيش فى ذات الفندق مع (جاكوب فولر) .. شممت رائحته ، وبوسعى أن أجده وسط كتيبة مشاة .. لقد دنوت منه مرارًا وسمعته يتكلم .. إنه يملك منجمًا ممتازًا يدر عليه عائدًا طيبًا .. إلا أنه ليس ثريًا .

إنه رجل مرح لا تبدو عليه أعوامه الثلاثة والأربعون .. لم يتزوج قط ثانية ويعتبر نفسه أرمل .. إنه محبوب وله شعبية .. ويبدو أن الدم الأبوى فى عروقى يطالب بحقه ، لأننى بدأت أنجذب إليه نوعًا .. يالغباء وعدم معقولية بعض طبائعنا .. أكثرها فى الواقع !

لقد صارت مهمتى أصعب وبدأت نيران الكره تنطفئ ، لكنى سأقوم بالمهمة .. حتى ولو ذهبت المتعة فإن الواجب يبقى .. وإنه لمما يثير حفيظتى أن أتذكر أن من ارتكب هذه الجريمة الشنيعة لم يقاس من تبعاتها .. يبدو أنه تعلم دروسًا وقد تغيرت شخصيته ، وهو راض عن هذا التغيير .. هو الآن لا يشعر بشىء

بينما ـ أنت الضحية ـ تحملين كل ويلات الجريمة على رأسك ..

لكن لا تقلقى .. فلسوف يحصد نصيبه من العقاب .

★ ★ ★

سيلفرجالش 19 مايو :

قمت بإلصاق الإعلان فى منتصف ليلة 3 أبريل ، وبعد ساعة دسست النموذج رقم 2 تحت باب غرفته .. وأنذرته بأن يغادر (دنفر) قبل منتصف ليل الرابع عشر من الشهر .

يبدو أن أحد الصحفيين الساهرين وجد ما وضعته .. هكذا حصل على معلومات قيمة وملأ (المغرفة) كما يصفون هذا العمل فى مهنته .. وتأكد من أن أية جريدة أخرى لن تعرف ما عرفه ، هكذا صدرت الجريدة وعلى صفحتها الأولى هذه الأخبار ببنط عريض مع مقال تحليلى ملتهب ، ثم أضافت الصحيفة ألف دولار إلى مكافأتنا السابقة ! إن الصحف هنا تعرف كيف تفعل أشياء نبيلة حينما تكون هناك منفعة مادية من هذا .

فى الصباح اخترت مقعدى الذى يعطينى نظرة واضحة على وجه بابا (فولر) ..

كان هناك نحو خمسة وسبعين أو مائة رجل فى الغرفة .. وكلهم يناقش الموضوع ، ويتمنى أن يجد الباحث الوغد وينظف المدينة من وجوده الملوث .

وحين وصل (فولر) كان نموذج طلب الرحيل مطويًا فى يده ، والجريدة فى الأخرى .. لقد ولى المرح من وجهه وبدا عجوزًا شاحبًا .. ثم فكرى الآن فى الأشياء التى عليه أن يسمعها !

لقد سمع أصدقاءه غير المرتابين يصفونه بنعوت مأخوذة من قواميس الشيطان غير المسموح بتداولها ، والتى يحتفظ الشيطان بها تحت الأرض .. والأسوأ أنه كان يجب أن يقر الاتهامات ويهلل لها .

كان من الواضح أن شهيته تبخرت .. فقط كان يقرض الخبز ، وقال له رجل :

ـ « من المحتمل جدًا أن هذا القريب فى الغرفة معنا ، يسمع ما تفكر فيه هذه البلدة بصدد ذلك الوغد .. أتمنى هذا .. »

من المثير للشفقة أن ترى كيف أن (فولر) هب واقفًا .. ولم يعد يحتمل المزيد .

لعدة أيام أشاع أنه ابتاع منجمًا فى المكسيك ، ويريد بيع كل شىء والرحيل إلى هناك بأسرع ما يمكن [illegible] نه سيأخذ 40.000 دولار وهو ربع الثمن نقدًا ، والباقى فى شيكات .. فى النهاية باع بثلاثين ألف دولار .

كنت أراقب كل هذا طيلة الوقت ، فما إن تمت الصفقة حتى التصقت بطريق (فولر) دون أن أتركه لحظة .. وبعد منتصف ليلة اليوم الحادى عشر من الشهر ، ذهبت لحجرته التى كانت تبعد عن غرفتى بأربع غرف فى ذات الردهة ، ثم ارتديت ثياب التنكر التى تجعلنى أبدو كعامل فى يوم موحل مطير .. وجلست فى حجرتى فى الظلام بحقيبة صغيرة وبابى شبه مفتوح .. لأننى قررت أن الطير قد يفر الآن ..

بعد نصف ساعة مرت امرأة تحمل حقيبة .. فشممت رائحة مميزة .. وتبعتها لأدرك أن هذا (فولر) .. لقد ترك الفندق ومشى فى شارع غير مطروق ، تحت أمطار ضعيفة وظلام دامس ، ثم استقل عربة يجرها حصانان ، كانت تنتظره حسب موعد .. اتخذت مقعدى بلا دعوة على مؤخرة العربة وانطلقنا مبتعدين .. ثم توقفت العربة عند محطة القطار وانصرفت .

جلس (فولر) تحت مظلة فدخلت وراقبت شباك التذاكر .. لم يبتع (فولر) تذاكر وكذا أنا ..

جاء القطار فاستقل عربة ، وركبت أنا ذات العربة عند نهايتها وجلست خلفه ، فلما ذكر وجهته للمحصل ابتعدت أنا للوراء بضعة مقاعد .. ودفعت ثمن تذكرة للمكان ذاته ..

ومنذ هذا الوقت ولمدة أسبوع كان كأنما يقودنى فى رقصة .. راح يسافر هنا وهناك .. دائمًا باتجاه الغرب ، لكنه لم يرتد ثياب المرأة قط بعد هذا .. لقد تنكر فى ثياب عامل مثلى وثبت شاربًا مستعارًا زائفًا .. كان بارعًا وحتى أقرب أصدقائه ما كان ليتعرفه .

أخيرًا أقام هنا .. أكثر المعسكرات الجبلية تواريًا فى (مونتانا) .. إن لديه كوخًا ، وهو يتجنب المجتمعات .. أعيش فى منزل لعامل مناجم .. وهو مكان لا يطاق .. الفراش .. الطعام .. القذارة .. كل شىء ...

الآن لنا هنا أربعة أسابيع ، وفى هذا الوقت رأيته مرة .. بمجرد أن اطمأننت على أنه استقر ، حتى أبرقت إلى (دنفر) كى يبقوا متاعى عندهم إلى أن آتى لأسترده ..

لا حاجة بى لمتاع هنا إلا القمصان وقد جلبت بعضها معى ..

* * *

سيلفرجالش 12 يونيو :

لم تصل قصة (دنفر) إلى هنا .. أنا أعرف جل الرجال ولم يشيروا لها قط .. لابد أن فولر يشعر بأمن تام ..

لكن شد ما تغير ! لم يعد يبتسم ولا يتكلم .. هو الذى كان مولعًا بالصحبة منذ شهرين ، رأيته يمشى عابسًا وقد راحت الخفة الوثابة من خطواته .. وهو يطلق على نفسه اسم (ديفيد ويلسون) ..

لو لم نضايقه سيظل هنا أبدًا .. لكنى سأضايقه ، وإن كنت لا أعرف كيف يمكنه أن يكون أتعس من هذا ..

سأعود إلى (دنفر) لأنعم بحمام وأستبدل ثيابى وآكل طعامًا محترمًا .. ثم أسترد متاعى ..

* * *

دنفر 19 يونيو :

يفتقدونه هنا : ويتمنون أن تكون أحواله طيبة فى المكسيك .

أعترف أننى أتلكأ هنا .. لكن لو كنت مكانى لشعرت بالشفقة على ..

لكن لو كنت مكانك بكل هذه المرارة فى قلبى ، لشعرت بما تشعرين به .. سآخذ قطار الليل عائدًا فى الغد .

* * *

دنفر 20 يونيو :

ليسامحنا اللّه ! أنا وأمى نطارد الرجل الخطأ !

لم أنم طيلة الليل .. انا الآن فجرًا أنتظر القطار ولكم تتثاقل الدقائق .. كم تتثاقل !

إن (جاكوب فولر) هو ابن عم المذنب .. كم كنا أغبياء حين فاتنا أن المذنب ما كان ليحتفظ باسمه بعد هذا العمل الشيطانى !

إن (فولر) (دنفر) أصغر بأربعة أعوام من الآخر .. جاء هنا وهو أرمل عام 1879 .. وكان هذا قبل زواجك بعام . وكل الوثائق تثبت هذا . أمس تحدثت مع أصدقاء له عرفوه منذ جاء هنا .. لم أقل شيئًا لكنى سأعيده لبلدته ثانية وأعوض ما خسره فى منجمه .. ستكون هناك مأدبة وموكب تحفه المشاعل .. ولن ينفق أحد مليمًا سواى . تسمين هذا مبالغة فى العواطف ؟ ربما .. فلا تنسى يا أماه أنى صبى .. وأننى لن أعود صبيًا ثانية .

* * *

سيلفر جالش 3 يوليو :

أماه .. لقد رحل ! رحل بلا أثر !

لقد زالت الرائحة لدى وصولى .. أتمنى لو لم أكن غلامًا .. كى أتحمل الصدمات بشكل أفضل .. الجميع يعتقدون أنه رحل غربًا .. سأرحل الليلة .. لا أعرف إلى أين .. لكن البقاء ساكنًا حيث أنا هو تعذيب لا أكثر ..

بالطبع منح نفسه اسمًا وتنكرًا جديدين .. هذا يعنى أننى قد اضطر لتفتيش كل الكرة الأرضية بحثًا عنه . هل ترين يا أمى أننى صرت الآن (اليهودى التائه) ؟ هل تدركين ما فى هذا من سخرية ؟ كنا قد أعددنا هذا المصير لواحد آخر ..

يجب أن أجده .. إن لك عقلاً أفضل من عقلى فساعدينى ..

لدى دليل واحد .. واحد فقط .. أنا أعرف خطه .. ولو وضع اسمه المزيف الجديد فى دفتر نزلاء فندق ، سأعرفه على الفور لو رأيته .

★ ★ ★

سان فرانسسكو 28 يونيو 1898 :

تعرفين كيف فتشت الولايات بعناية من (كولورادو) حتى المحيط الهادى .. وكيف كدت أظفر به مرة ..

كان هذا هنا .. أمس .. شممت رائحته فى الشارع ، وتتبعتها إلى فندق رخيص . كان هذا خطأ باهظًا .. فأى كلب كان سيتجه فى الاتجاه العكسى .. لكنى جزء من كلب ويمكن أن أتصرف بغباء كالبشر حين أتوتر .

لقد أقام فى هذا الفندق عشرة أيام ، وهو لا يبقى فى أى مكان فترة طويلة . ما زال يستعمل الاسم الذى كان يحمله حين كدت أجده منذ تسعة اشهر (جيمس ووكر) .. لا بد أنه الاسم الذى اتخذه حين فر من (جالش) .

إنه رجل بسيط لا يهوى الأسماء الرنانة ..

قالوا لى إنه ارتحل منذ ساعات فى رحلة ولم يترك عنوانًا .. ولم يقل إلى أين هو راحل . لم يكن معه من متاع إلا حقيبة رخيصة يحملها دومًا ..

ـ « عجوز بخيل شحيح ولن يسبب خسارة للفندق »

عجوز ؟ أعتقد أنه كذلك الآن ..

خرجت أقتفى أثره فاقتادنى إلى رصيف الميناء .. أماه .. إن دخان القارب البخارى الذى أخذه كان يتلاشى من الأفق ! كنت سأدخر نصف ساعة لو مشيت فى الطريق العكسى من البداية ..

إن هذه السفينة تتجه إلى (ملبورن) فى (أستراليا) .

* * *

وادى الأمل كاليفورنيا 3 أكتوبر عام 1900 :

من حقك أن تشكى .. إن خطابًا واحدًا فى العام هو شح حقيقى . لكن ما عسى المرء يكتبه إن لم يكن لديه ما يحكيه إلا الفشل ؟

حكيت لك كيف فقدت الرجل فى (ملبورن) ، وكيف بحثت عنه فى أستراليا كلها ..

حسن .. بعد هذا تبعته إلى الهند .. وكدت أقابله فى (بومباى) .. (كلكتا) .. (روالبندى) .. كل مكان .. أسبوعًا بعد اسبوع .. وشهرًا بعد شهر .. فى كل مرة أكاد ألمسه لكنى لا أظفر به أبدًا ..

ثم تبعته إلى .. لا عليك .. سأحكى هذا بالتفصيل فيما بعد ..

تبعته إلى (كاليفورنيا) .. فالمكسيك .. فكاليفورنيا .. أعتقد أنه ليس بعيدًا عن (وادى الأمل) ..

أنا متعب حتى الموت يا أمى .. واقتربت من اليأس النهائى ، لكن عمال المناجم هنا قوم طيبون .. وطريقتهم المرحة الطلقة تنعش المرء وتجعله ينسى متاعبه .

أعيش منذ شهر مع فتى يدعى (سامى) أو (هيليار) .. فى الخامسة والعشرين من عمره ، والابن الوحيد لأمه .. مثلى .. يكتب لها كل أسبوع ..

إنه فتى لطيف لكن من ناحية الذكاء يمكنه أن يشعل النار فى نهر .. لكن الكل يحبه .. والجلوس معه يشعرك بأنك تأكلين عيشًا وملحًا ولحمًا .. ولكم اشفق على (جيمس ووكر) .. لقد كان يحب الصحبة .. وله أصدقاء كثيرون ..

إن قلب (هيليار) أنظف من قلبى .. أنظف من قلب كل من فى الجوار .. وهو الصديق الوحيد لوصمة عار المعسكر المدعو (فلينت باكنر) .. والرجل الذى يكلمه (فلنت) أو يسمح له بالكلام معه ..

فى إحدى المحادثات قال لى :

ـ « (فلينت) قريب لى .. وهو يصب كل متاعبه عندى ..

إن صدره يوشك على الانفجار بما فيه من أسرار .. لا يوجد رجل أكثر منه تعاسة يا (أرشى) .. حياته سلسلة من المشاكل وقد فقد الشعور بالراحة والسلام .. الأعوام تمضى .. وهو لا يعرف ما معنى الحظ الحسن فهو لم ينل قسطًا منه قط .. ويقول دومًا إنه راغب فى أن يجرب الجحيم الآخر .. فقد سئم هذا الجحيم .. »

★ ★ ★

4

ما من سادة مهذبين يذكرون الحقيقة العارية فى وجود سيدات

كان يومًا عطرًا نضرًا فى أول أكتوبر . وقد أضيئت زهور الليلاك بنيران الخريف المجيدة ، معلقة تتوهج فى الهواء .. وعبق الزهور الموسمية يرتفع فى الهواء وفى كل مكان تجد الصمت والهدوء والسلام الإلهى .

الوقت هو أكتوبر .. 1900 .. (وادى الأمل) هو المكان .. منجم للفضة بعيدًا فى منطقة (إزميرالدا) . إنه موضع بعيد منعزل .. يعتقد سكانه أنه ملىء بالمعدان الثمين .. ولسوف يعرفون هذا بعد عام أو عامين من التنقيب .

بالنسبة للسكان يحوى المعسكر مائتى عامل تنجيم ، وامرأة بيضاء وطفلها ، وعدة صينيين يقومون بالغسيل ، ودستة هنود بلا قبيلة يلبسون جلد الأرانب .

لا توجد طواحين هنا ولا كنيسة ولا جرائد . إن المعسكر أنشئ منذ عامين ، فلم يسمع العالم شيئًا عن اسمه ومكانه . هناك تقف الجبال شامخة حول مجتمع من الأكواخ ، ليس فيه ما يستحق أن تدعوه بيتًا إلا الخان . إن الخان يقع فى

منتصف الموقع وهو ملتقى الناس ليلاً . هنـاك يلتقـون ويشربون ويلعبون الدومينو والـ (سفن أب) .. وربما يلعبون بعض البلياردو كذلك ..

كان كوخ (فليينت بكنر) يقع جنوبًا ، وهو أحدث كوخ تم بناؤه . كـان الرجل نفســه شخصًا فظًا غيـر اجتمـاعى بلا رفقة .. وكل من حاول تعرفه ندم على ذلك . ولم يكن تاريخه معروفًا ، وإن زعم البعض أن (سامى) يعرفه ..

كـان معـه شـاب فـى السادسـة عشـرة من عمـره اسـمه (فتلوك جونز) .. وكان الشاب يقول إن (فلنت) وجده شريدًا ، وقد وجد أنه من الحكمـة أن يبقى مع (فلنت) برغم معاملتـه القاسية له لأن الفتى بلا أقارب ولا أصدقـاء .. على الأقل من أجل الراتب الذى لم يزد على الفاصوليا واللحم المقدد .

فيما عدا هذا لم يكن لديه ما يضاف ..

حاول الناس أن يساعدوا (فتلوك) وحاولوا إقناعه بترك (باكنر) لكن الفتى خاف من الفكرة ..

ألح عليه (بات رايلى) قائلاً :

ـ « اترك الأحمق العجوز وتعال معى .. لا تخف .. لسوف أعنى به .. »

شكره الصبى دامعًا وقال :

ـ « لا أجرؤ على هذا .. إن التفكير فى هذا يشعرنى بالغثيان يا مستر (رايلى) .. »

لم يفهم القوم هذا الموقف .. لقد استمرت تعاسـة الفتـى أسبوعًا بعد أسبوع . لكن لو عرف الناس كيف يمضى وقته لفهمـوا .. كـان يبيت خـارج الكـوخ يجتر جراحـه وكدمـات جسـده وكرامته ، ويفكر فى الطريقة التى يقتل بها (فلينت) من دون أن يقبض عليه .

كانت هذه مسرته الوحيدة فى الحياة ، والساعات الوحيدة التى يتطلع إليها طيلة اليوم .

فكر فى السم .. لكن هذا لا يصلـح .. سيعرف المحققون من أين جلبه ومن فعل هذا ..

فكر فى طلقة فى الظهر ، لكن ربما كان هناك أحدهم قريبًا ..

فكر فى طعن الرجل وهو نائم ، لا .. ربما جاءت ضربتـه غير موفقة .. وأمسك به (فلينت) ..

فكر فى مائة طريقة ، وكلهـا غير صالحة .. فى كل منهـا مخاطرة أو فرصة أو احتمال القبض عليه ..

لكنه كان صبورًا .. صبورًا بلا نهاية .. لاداعى للعجلة .. فلن يفارق (فلينت) إلا جثة هامدة .. إن الحل فى مكان ما ولسوف يتحمل الألم والإهانة حتى يظفر به .

فى مكان ما توجد طريقة أكيدة وبلا خطر ، وعندها ستبدأ بهجة الحياة ! وحتى ذلك الحين سيحافظ على صورة الخنوع الخاضع أمام القوم .. ولن يدع أحدًا يسمع منه كلمة سوء فى حق معذبه ..

قبل نهار أكتوبر الذى تكلمنا عنه بيومين ، ابتاع (فلينت) بعض الأشياء لكوخه .. جلب صندوقًا من الشمع .. وعلبة من البارود ولفة فتيل .. وقدر (فتلوك) أن أعمال (فلينت) فى المنجم دنت من ذروتها ..

كان قد رأى التفجير من قبل . لكنه لم يعاون فيه قط ..

فى الصباح حمل الاثنان الفتيل والمثقاب وعلب البارود .. كان ارتفاع المنجم ثمانية أقدام ، ولهذا كانا بحاجة إلى سلم قصير .

نزلا .. وبناء على الأوامر حمل (فتلوك) المثقاب دون أية تعليمات عن طريقة حمله .. وهكذا طار المثقاب من يده :

ـ « يابن الزنجى الأجرب !!! هل هذه طريقة حمل مثقاب ؟ التقطه .. قف ! سأدبرك !! »

وبدأ الصبى يصب البارود فى الحفرة ..

ـ « أحمق !! »

وهوت ضربة قوية على فكه أوقعته أرضًا .

ـ « أولاً ثبت الفتيل .. ثم ضع البارود .. توقف ! توقف هل تنوى أن تملأ الحفرة كلها ؟ ضع بعض التراب .. ضع بعض الحصى .. قف .. قف ! »

وراح يدك الشحنة بنفسه .. وهو مازال يلعن وينطق بعبارات التجديف كأنه شيطان . ثم لأنه أشعل الفتيل وخرج من النفق ثم ابتعد خمسين ياردة .. وتبعه (فتلوك) .. ووقفا بعيدًا ينتظران ..

اندفعت سحابة من الدخان والصخور فى الهواء ، مع انفجار كالرعد .. وبعدها انهمر شلال من الصخور . ثم عاد الهدوء .

قال السيد :

ـ « وددت من الله لو كنت أنت فى هذا الانفجار !! »

ونزل الرجلان الفتحة ونظفاها ، ثم حفرا ثقبًا آخر ..

ـ « كم من الفتيل تنوى تبديده ؟ ألم تتعلم كيف تضبط زمن الاشتعال ؟ »

ـ « نعم يا سيدى .. »

ـ « لا تعرف ؟ أنت تفوق أى شىء رأيته .. »

ثم خرج من الفتحة وصاح :

ـ « حسن يا أحمق ! هل ستبقى هنا كل اليوم ؟ اقطع الفتيل وأشعله .. »

ثم إنه فى غضبه حمل السلم وجرى مبتعدًا ، فأصيب الفتى بالهلع وقد وجد نفسه وحيدًا فى الحفرة التى ستنفجر حالاً ..

تراجع للحائط ، وقد أثار الصوت فزعه .. وقف عاجزًا عن التفكير أو العمل .. بعد ثوان سيطير فى السماء وقد تحول إلى قطع . ثم جاءته فكرة .. جرى إلى الفتيل وانتزع البوصة التى بقيت فوق الأرض .. وهكذا نجا ..

بعد خمس دقائق زحف (باكنر) إلى الحفرة .. كان قلقًا لا يفهم .. واختلس النظر إلى داخلها .. هنا فهم ما حدث .. أنزل السلم فى الحفرة فزحف الصبى نحوه بوهن ، كان غاية فى الشحوب وفى مظهره ما زاد من قلق (باكنر) ..

قال (باكنر) فى نوع من الندم :

ـ « كان حادثًا كما تعلم .. لا تقل شيئًا عن هذا لأى واحد ..

كنت متحمسًا ولم أدر ما أفعله .. أنت لا تبدو على ما يرام .. توجه إلى كوخى وكل ما تريد واسترح .. هذا حادث لا أكثر .. »

قال الفتى :

ـ « لقد أثار رعبى .. لكنى تعلمت شيئًا جديدًا .. فلا تضايق نفسك .. »

راح (باكنر) يتابعه بعينيه ..

ترى هل يتكلم ؟ ليت الانفجار قتله ..

لكن الفتى لم ينتهز الفرصة ليستريح ، بل راح يعمل .. فى حماسة وسعادة .. كانت هناك أجمة من الشجيرات قرب كوخ (فلينت) . وكان جل عمل الفتى فى الظلمات العنيدة لهذه الأشجار . والباقى تم فى كوخه . فى النهاية تم كل شىء وقال :

ـ « لو شك فى أننى سأخبر الناس عنه فسأعرف هذا سريعًا .. سيتأكد من أننى ما زلت ذلك المعتوه النكرة كما كنت دومًا .. لكن ليلة بعد غد هى نهايته .. ولن يعرف أحد من قتله ولا كيف تم هذا .. لقد أعطانى الفكرة بنفسه وإن هذا لغريب .. »

* * *

5

وجاء اليوم التالى ورحل ..

إنه الآن منتصف الليل تقريبًا ، وبعد خمس دقائق يبدأ اليوم الجديد . المشهد هو غرفة البلياردو فى الخان . رجال خشنو المظهر فى ثياب خشنة .. بعضهم بسترات ولا معاطف .. كلهم مجتمع حول الموقد أحمر الخدين يبعثر الدفء البهيج .

كرات البلياردو ترتطم .. والرجال يبدو عليهم السأم والترقب .. هناك عامل مناجم ضخم الكتفين فى منتصف العمر ، ذو نظرة غير ودود .. ينهض ويلف لفة من الفتيل حول ذراعه .. يجمع بعض أشياء خاصة به ثم يرحل دون كلمة أو تحية . إنه (فلنت باكنر) ..

فما إن انغلقت الأبواب خلفه حتى دوى أزيز الكلام عنه ..

قال الحداد (جيك باركر)(*):

ـ « هذا أكثر الرجال انتظامًا فى المواعيد .. يمكنك أن تعرف الساعة الثانية عشرة حين تراه يرحل دون أن ينظر لك .. »

(*) (أعترف أن ترجمة هذه المحاورة غير أمينة ، بسبب أنها تجرى بلسان عمال المناجم .. إن حديثهم ممتع لكن ترجمته حرفيًا شبه مستحيلة ..)

قال عامل المناجم (بيتر هوز) :

ـ « وتلك فضيلته الوحيدة على قدر علمى .. »

قال (فيرجسون) موظف (ويلز فارجو) شركة النقل الشهيرة :

ـ « إنه وصمة لهذا المجتمع .. »

قال عامل المناجم (هام ساندوتش) :

ـ « هل يذكر أحدكم أنه دعاه إلى الشراب ؟ »

ـ « من ؟ (فلنت باكنر) ؟ »

اندفع هذا التيار من التعليقات الساخرة من كل صوب .. وبعد صمت قال (بات رايلى) عامل المناجم :

ـ « إنه للغز ذلك الوغد .. والفتى لغز آخر .. لا أفهم شيئًا .. »

قال عامل المناجم (هام ساندوتش)(*) :

ـ « ولا أحد يفهم .. لكن لو كانا لغزين فكيف تقيم هذا الآخر ؟ إنه يفوقهما فى الغموض كثيرًا .. »

ـ « لك أن تراهن على هذا .. »

وافق الجميع على هذا ، ما عدا واحدًا .. كان هو الوافد

(*) معنى اسمه هو (شطيرة فخذ الخنزير) ..

الجديد (بيترسون) .. لقد دعا الجميع إلى الشراب وسأل عن كنه الشخص الثالث . أجاب الجميع على الفور :

ـ « (أرشى ستيلمان) ! »

تساءل (بيترسون) :

ـ « هل (أرشى ستيلمان) لغز حقًّا ؟ »

قال موظف (ويلز فارجو) (فيرجسون) :

ـ « إنه الغموض ذاته .. وبالنسبة له يغدو البعد الرابع شيئًا مفهومًا .. »

فقد كان (فيرجسون) متعلمًا ..

وكان (بيترسون) يرغب فى سماع كل شىء .. وكان كل واحد مستعدًا لسرد القصة .. لكن البارمان أصر على أن يدعو أحدهم الآخرين للشراب بالدور .. وبدأ (فيرجسون) الكلام :

ـ « حسن .. هو صبى .. وهذا كل ما نعلمه عنه .. ولن تحصل على شىء آخر منه .. لن تعرف نواياه .. يمكنك أن تخمن .. تحاول حتى يسود وجهك وهو كظيم .. لكن ما الذى تصل إليه ؟ إلا أن له موهبة غريبة سمها موهبة أو سحرًا .. اختف من أمامه فى أى مكان تريد ، ولسوف يصل إليك ويخرجك من مكانك .. »

ـ « أنت لا تغنى هذا .. »

ـ « لكنى أعنيه .. إنه لا يرى فى هذا شيئًا صعبًا أو موهبة خاصة .. ولا يبالى بالبرد أو الظلام أو المطر .. »

ـ « أنت لا تتحدث عن الضباب ؟ »

ـ « ضباب ؟ إن له عينًا تخرق الضباب كأنها الرصاص .. »

ـ « إذن هو الشيطان ذاته !! »

ـ « كثيرون فكروا فى هذا .. والآن دعنى أحك لك شيئًا فعله .. ليلة أول من أمس .. »

هنا دوت جلبة بالخارج ، وانفتح الباب .. ودخل حشد متحمس تتقدمه امرأة المعسكر البيضاء الوحيدة ، وهى تصيح :

ـ « طفلتى ! طفلتى ! لقد ضاعت ! بالله عليكم ساعدونى كى نجد (أرشى ستيلمان) فقد بحثنا فى كل صوب .. »

قال البارمان :

ـ « اجلسى يا مسز (هوجان) .. ولا تقلقى .. لقد طلب منى فراشًا منذ ثلاث ساعات .. (هام ساندوتش) .. اصعد وأيقظه .. إنه فى رقم (14) .. »

سرعان ما هبط الفتى متأهبًا .. وسأل الأم عن بعض التفاصيل .

ـ « للأسف ليست هناك تفاصيل يا عزيزى .. وليت لدى تفاصيل .. أرقدتها فى فراشها فى السابعة مساء .. وحين صعدت للفراش منذ ساعة ، لم أجدها .. ذهبت لكوخك فلم أجدك هناك .. ورحت أبحث عنك فى كل مكان .. لكن الآن وجدتك ولله الحمد .. ولسوف تجدها لى .. »

ـ « حسن .. اذهبى لكوخك يا سيدتى ولسوف ألحق بك .. »

وخرج الجميع من الحانة لبدء البحث .. وسرعان ما بلغوا كوخ (هوجان) .

قال (أرشى) للأم :

ـ « هاتى لى مصباحًا .. »

وركع على الأرض الصلبة متظاهرًا بأنه يفحصها .. وقال وهو يشير بإصبعه إلى الأرض :

ـ « هذا هو دربها .. هل ترون ؟ »

نظر الرجال وأقنع بعضهم نفسه بأنه يرى آثارًا بينما اعترف آخرون بأن الأرض ناعمة لا تظهر شيئًا على الإطلاق .. أو أن عيونهم ليست بهذه الحدة ..

خرج (ستيلمان) من الغرفة واتجه إلى اليسار وقال :

ـ « وجدت أثرها .. اتبعونى .. »

ولمسافة ميل ونصف مشى الفتى وهو يحمل المصباح بين الأشجار الكثيفة ودار دورة ونصف حول نفسه .. ثم قال لهم وهو يشير إلى جذع شجرة :

ـ « هنا جلست المسكينة بعد ما أرهقها المشى .. هل ترون ؟ »

لكن أيًا من الرجال لم يستطع أن يرى شيئًا على الجذع الأملس كالصلب .. لكن الأم الحزينة ركعت وطبعت قبلة على الجذع ، وأعولت :

ـ « لكن أين هى إذن ؟ »

دار (ستيلمان) فى دائرة حول المكان .. وهو يرفع الفانوس متظاهرًا بالبحث عن آثار ..

ثم قال فى ضيق :

ـ « حسن .. لا أفهم هذا .. »

وعاد يتفحص المكان :

ـ « كانت هنا .. لم تغادر هذا المكان .. هذا أكيد .. هذا لغز .. لا أستطيع تفسيره .. »

هنا فقدت الأم صوابها :

ـ « آه يا إلهى الرحيم !! ثمة وحوش طائرة اختطفتها من هنا !! لن أتحمل هذا ! »

ـ « لاتقلقى .. سنجدها .. »

أمسكت الأم بيده ولثمتها وقالت :

ـ « ألا بارك اللّه فيك يا (أرشى ستيلمان) »

همس (بيترسون) فى تهكم فى أذن (فيرجسون) :

ـ « تمثيلية بارعة .. لكن ما كان يجب أن يجعلنا نمشى كل هذه المسافة .. كان أى مكان قريب يؤدى الغرض نفسه .. »

هنا هتف (أرشى) وهو يشير إلى الأرض :

ـ « انظروا جميعًا هنا !! كان الجواب أمامنا طيلة الوقت ولم نره .. »

ونظر الجميع إلى حيث أشار (أرشى) فلم يروا شيئًا ..

ـ « أحقًا لاترون شيئًا ؟ انظروا .. هذا هو أثر (إنجن بيلى) .. لقد أخذ الطفلة .. »

هتفت الأم :

ـ « رحمتك يارب ! »

ـ « خذوا المصباح واتبعونى ! »

وراح يجرى بين الأشجار ثلاثين ياردة .. ثم اختفى خلف مرتفع من الرمل .. لحق به الرجال فوجدوا كومة من البطاطين وأغطية الجياد المكومة على شكل خيمة هندية صغيرة .. وبين الفتحات ضوء خافت ..

قال الفتى :

ـ « أنت قائدتنا يا مسز (هوجان) .. أنت أولنا .. »

ومشى الجميع ليروا ما بداخل الخيمة الهندية ..

كان (إنجين بيلى) جالسًا على الأرض والطفلة نائمة بجواره .. احتضنتها الأم فى حرارة ونهم .. وانهمرت الدموع من عينيها .. وبصوت مختنق صبت ذلك الشلال الثمين من العواطف الذى لايمكن أن يوجد إلا فى قلب أيرلندى ..

قال (بيلى) :

ـ « وجدتها فى العاشرة مساء .. كانت نائمة هناك .. متعبة .. دامعة .. تبكى .. حملتها لهنا وأطعمتها .. كانت جائعة .. ثم نامت .. »

احتضنته الأم فى تأجج عاطفتها وأطلقت عليه اسم (ملاك الرب) ..

وفى الواحدة والنصف صباحًا عاد الموكب للقرية مغنيًا : حين يعود (جونى) لداره ..

ملوحين بالمصابيح ، يجرعون الشراب ، واستمر السهر حتى الصباح ..

★ ★ ★

6

الجزء الثانى

عصر اليوم التالى ، كانت الإثارة تكهرب القرية كلها . هناك غريب نبيل كريم المحتد ، قد وصل إلى الخان ، ووقع باسمه المروع فى السجل :

شيرلوك هولمز ..

انتقلت الأخبار من كوخ لآخر .. ألقوا بأدوات الحفر واحتشدت البلدة كلها حول مركز الاهتمام . وصاح رجل فى شمال القرية بالأخبار لـ (بات رايلى) . وشعر (فتلوك جونز) بالغثيان وقال لنفسه :

ـ « العم (شيرلوك) !! يا له من حظ ! أن يأتى بينما أنا .... »

ثم قال لنفسه :

ـ « وما المشكلة ؟ أى واحد يعرفه كما أعرفه أنا ، يفهم أنه لا يستطيع حل لغز جريمة إلا بعد ما يدبرها أولاً .. ويرتب

الأدلة .. ثم يستأجر شخصًا يرتكبها له[*] .. الآن لن تكون هناك أدلة فماذا عساه يفعل ؟ لا .. كل شىء على ما يرام .. كنت سأجازف بإلغاء الخطة .. لكن لا .. (فلينت باكنر) سيغادر دنيانا هذا المساء .. »

هنا ظهرت مشكلة أخرى :

ـ « العم (شيرلوك) سيكون معى هذا المساء .. بينما أنا بحاجة إلى الانفراد بنفسى فى كوخى حوالى الثامنة مساء .. كيف أتخلص منه ؟ »

ثم وجد الحل :

ـ « سنخرج لنزهة .. ثم أتركه دقيقة .. فلن يرى ما سأفعله .. أفضل شىء تضلل به مخبرًا هو أن تكون معه بينما أنت ترتب كل شىء .. هذا هو الحل الأصوب .. »

فى الآن ذاته كان الطريق أمام الخان مسدودًا بالقرويين ينتظرون ويأملون فى رؤية الرجل العظيم .. لكنه لم يغادر حجرته .. بعض الرجال تسللوا إلى خزانة الحقائب ، وثقبوا فيها ثقوبًا اختلسوا منها النظر .. هكذا استطاعوا أن يلقوا نظرة على أعظم مخبر فى العالم ..

(★) طبعًا هذه سخرية (مارك توين) الأمريكى من (هولمز) رمز الذكاء البريطانى .. وكما سنرى يقوم بـ (بهدلته) بعنف فى هذه القصة ..

كان يجلس هناك .. ليس خرافة .. ليس ظلاً .. بل هو حقيقى حى .. مادة مجسمة .. تكاد تلمسه ..

وقال (فيرجسون) :

ـ « انظر لهذا الرأس ! بحق السماء هذا رأس فعلاً ! »

وقال الحداد :

ـ « وشحوبه ! يأتى من التفكير .. من هنا يأتى ! الحمقى من أمثالنا لا يعرفون معنى كلمة تفكير أصلاً .. »

ـ « وهذه التقطيبة .. هذا هو التفكير العميق .. تحت .. تحت .. يأتى من عمق أربعين قامة فى أحشائه .. إنه على وشك التوصل لشىء ما .. »

ـ « حتمًا .. ولا تنسوا هذا .. انظر لهذه الجدية المخيفة .. »

ـ « لقد مات أربع مرات من قبل .. ثلاث منها كانت موتًا طبيعيًا .. سمعت أن رائحته رطبة باردة .. كأنه قبر .. »

ـ « شش .. راقبه ! لقد وضع إبهامه على طرف جبينه القريب ، وسبابته على الطرف البعيد .. إن تفكيره منهك جدًا ، ولك أن تراهن على هذا بقميصك الآخر .. »

ـ « الآن هو ينظر للسماء ويمسح شاربه ببطء .. »

- « هل تراه ؟ إنه ينهض .. يبدو أنه لا يجد الدليل .. لذا .. »

- « انظر له يبتسم ! كالنمر .. لقد وصل إليها يا شباب ! وصل إليها بالتأكيد ! »

- « يجب أن أقول هنا إننى أكره أن أكون الرجل الذى يبحث عنه .. »

جلس (هولمز) إلى النافذة وظهره للمتلصصين ، وبدأ يكتب .. فأدار الجواسيس ظهورهم وأشعلوا غلايينهم ليتكلموا من مخبئهم :

- « يا شباب .. لا فائدة من الكلام .. إن الرجل مذهل .. »

- « أنت لم تقل قط كلمة أحكم يا (ويلز فارجو) .. وإننى لأتساءل ماذا كان سيفعله لو جاء أمس .. »

- « بالله عليك .. كنا سنرى عملاً علميًا باهرًا .. (أرشى) جيد ولا يرغب أحد فى تهوين شأنه .. لكن موهبته نوع من موهبة البومة لا أكثر .. لا ذكاء فيها .. ولا يمكن مقارنتها بهذا الرجل .. كان سيتجه إلى السيدة ويسألها : »

- « مدام .. من فضلك .. لا تتركى ذهنك يشرد .. ما جنس ابنتك ؟ »

- « أنثى يا سيدى .. »

- « وعمرها ؟ »

- « ستة أعوام يا سيدى .. »

- « أم م م .. صغيرة السن .. ضعيفة .. ميلان .. سينهكها المشى أكثر من هذا .. سنجدها على بعد ميلين .. وأسنانها ؟ »

- « خمس يا سيدى .. والسادس فى الطريق .. »

- « جميل .. جميل .. »

- « ترون يا رفاق .. الرجل يجد الدليل فيما لا نرى نحن أى معنى له .. ثم سيسألها : »

- « ديانتها ؟ »

- « كاثوليكية يا سيدى .. »

- « جميل .. ناولتنى قطعة من غطاء الفراش .. شكرًا .. من الصوف .. صناعة أجنبية .. همممم .. جميل .. وبعضًا من غبار الأرض .. »

- « هكذا يا شباب يأخذ هذه الأشياء ويضعها على المنضدة .. لقد حصل على كل ما يريد من أدلة .. ويروح يرصها على المنضدة بشكل مختلف فى كل مرة (أنثى) ثم يعيد الترتيب

(ستة) ثم يعيد الترتيب .. (كاثوليكية) .. وبعد قليل يلتمع وجهه بابتسامة كأنه بيت يحترق .. ثم يقول للحشد :

ـ « اثنان منكما .. خذا مصنبيح .. اذهبا لـ (إنجن بيلى) .. إن الطفلة هناك .. أما الآخرون فليعودوا لبيوتهم وينامو ا .. تصبحين على خير يا مدام .. تصبحون على خير يا سادة .. »

ـ « هذه هى طريقته .. فقط العلم .. رجل كهذا لا يمشى وسط الأشجار ساعة ونصفًا يبحث فى الأرض .. »

وجلس الرجال يفكرون راضين عن أنفسهم ..

* * *

7

فى الثامنة مساء تلك الليلة كان هناك رجلان يشقان طريقهما قرب كوخ (فلينت باكنر) فى ظلام الغابة . كانا (هولمز) وابن أخيه .

قال (فتلوك) :

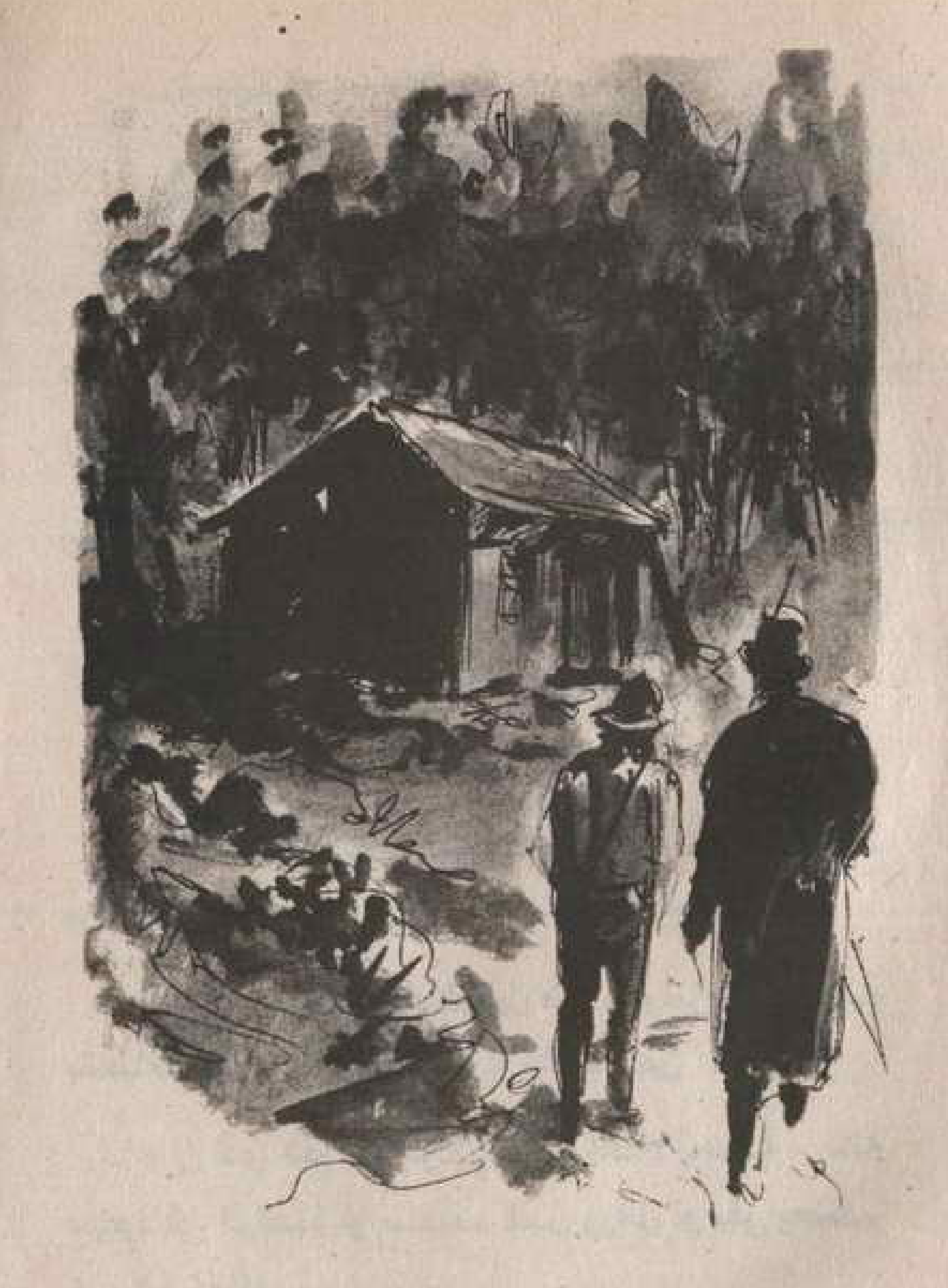
ـ « قف هنا يا عماه .. بينما أهرع إلى الكوخ .. لن أتأخر أكثر من دقيقة .. »

اختفى لدقيقة ثم عاد ، وواصل الاثنان المشى .

فى التاسعة مساء كانا قد عادا إلى الخان . كان هناك حشد من الناس ينتظرون أن تقع عيونهم على الرجل الخارق

للعادة . ارتفعت أصوات التهليل فرد (هولمز) المجاملة بانحناءات ملكية .. وقال (فتلوك) للمجتمعين :

ـ « إن لدى العم (شرلوك) بعض أعمال يا سادة .. لكنه سيعود فى الواحدة أو منتصف الليل ويأمل لو بقى بعضكم كى يشاركه الشراب .. »



فى الثامنة مساء تلك الليلة كان هناك رجلان يشقان طريقهما قرب كوخ (فلينت باكنر) فى ظلام الغابة ..

صاح (فيرجسون) :

- « بحق السماء إن هذا الرجل دوق يا رجال .. ثلاث تهليلات لأعظم رجل عاش على الأرض .. هيب هيب هيب !! »

- « مرحى .. مرحى .. مرحى .. أيها النمر !! »

واهتز المبنى بصوت الهتاف ..

وفى الطابق العلوى وبخ (هولمز) ابن أخيه برفق قائلاً :

- « لم ورطتنى فى هذا الارتباط ؟ »

- « أحسبك ترغب فى الشعبية يا عمى .. إنهم يحبونك لو لم تدعهم إلى الشراب سوف يعتبرونك صعلوكا .. ثم إنك قلت إن لديك من أخبار الوطن ما يكفى ليشغلنا طيلة الليل .. »

ظل وعمه يتكلمان ثلاث ساعات كاملة .. ثم عند منتصف الليل ، نزل (فتلوك) إلى الظلام ، ووقف ينتظر .. بعد خمس دقائق خرج (باكنر) مسرعًا من غرفة البلياردو ..

قال الفتى لنفسه :

- « قد ظفرت به ! »

وقال للظل المبتعد :

ـ « وداعًا للأبد .. يا (فلينت باكنر) .. أنت شتمت أمى .. ليكن .. لقد انتهى الأمر الآن .. أنت تخطو خطواتك الأخيرة يا صديقى .. »

وعاد للخان ، وقال لنفسه :

ـ « حتى الواحدة صباحًا هناك وقت أمضيه مع الشباب .. هذا مفيد كحجة غياب .. »

وعاد مع (هولمز) إلى غرفة البلياردو المليئة بوجوه متلهفة معجبة .. طلب الضيف المشروبات وبدأ المرح . وسرعان ما تهشم الثلج ، وبدأ الغناء ..

وفى الواحدة وست دقائق كان الحفل فى ذروته . حين ..

بوم !!!

ساد الصمت .. ثم زال السحر واندفع الرجال إلى الباب :

ـ « شىء ما انفجر .. »

واندفع القوم إلى الوادى .. قطعوا ميلاً فى دقائق .. وفى ضوء المصابيح وجدوا أرض كوخ (فلينت باكنر) القذرة .. لكن الكوخ ذاته لم يكن هناك .. لا علامة من أى نوع على وجود (فلينت) ذاته ..

ثم صاح أحدهم :

ـ « هو هنا .. »

بالفعل على بعد خمسين ياردة ، وجدوا كتلة بلا حياة تمثله ..

هنا احتشد القوم حول مركز الاهتمام (شيرلوك هولمز) .. وقف عمال المناجم محيطين بموقع الجريمة .. ووسط هذا الجمع وقف الرجل الخارق للطبيعة وابن أخيه بجواره يحمل له مصباحًا . راح يأخذ قياس الكوخ بشريط .. راح يقيس ارتفاع الأشجار .. أخذ عينات من التربة بجفت صغير .. وحدد إحداثيات المكان بالبوصلة ، ثم سجل الوقت (طبقًا للمحيط الهادى) بساعته ثم صححه ليعرف الوقت المحلى . مشى من الكوخ إلى الجثة وصحح الاختلاف المد جذرى . وحدد الارتفاع وحرارة الجو .

فى النهاية قال وهو ينحنى انحناءة فخيمة :

ـ « لقد انتهيت .. فهلا عدنا يا سادة ؟ »

ثم تقدم الجمع إلى الخان ، بينما الناس يمشون وراءه شاعرين بانبهار من هذا الرجل الخارق .. وراحوا يتساءلون عمن ألف هذه المأساة التى رأوها الآن .

قال (فيرجسون) :

ـ « رباه ! لكن من حسن طالعنا أن هذا الرجل معنا الآن يا شباب .. »

قال (هام ساندوتش) :

ـ « هذا حدث القرن .. لسوف يتحدث العالم كله عن هذا ، ولكم أن تأخذوا كلمتى .. هذا أفضل حظ لمعسكر مستجد .. سوف ترتفع أسعار مناجمنا .. »

ـ « يا جدعان .. أنا لست نادمًا على أنه لم يكن هنا لإنقاذ الطفلة .. هذا شىء أكبر وأهم وأكثر علمية وثقافة .. »

ـ « لو كان (أرشى) هنا لتعلم شيئًا من طريقة عمل الرجل .. لكنه توارى بين الأشجار .. »

ـ « (أرشى) صغير السن .. سيتعلم أفضل فى يوم من تلك الأيام »

راح الرجال يخمنون من فعلها لكن من دون جدوى .. كان (هليار) الصغير هو الوحيد ذا العلاقة الحميمة مع (باكنر) .. صحيح أن (باكنر) كان مكروهًا لكن ليس إلى حد أن يقتله أى رجل ..

كان هناك اسم واحد على لسان الجميع من البداية ، لكن لم يلفظه أحد إلا متأخرًا جدًا ، وكان (رايلى) هو من لفظه : (فتلوك جونز) ..

ـ « نعم .. كلنا فكر فى الشىء ذاته لأن له مليون حق كى يقتل (فلينت باكنر) .. بل كان هذا من واجبه . لكنّ هناك مشكلتين : أولاً ليس لديه البارود .. ثانيًا : لم يكن قرب مكان الحادث .. »

قال (فيرجسون) :

ـ « كان فى غرفة البلياردو حين وقع الحادث .. »

ـ « الأمر كذا .. وهذا من حسن حظه .. كنا سنتهمه فى دقيقة لولا هذا .. »

* * *

8

تم إخلاء قاعة طعام الخان من كل شىء إلا من منضدة من خشب الصنوبر . بينما جلس (هولمز) فى جلال ومهابة على مقعد .. ووقف القوم وتكاثف الدخان ..

رفع الرجل الخارق يده طلبًا لمزيد من الصمت ، ثم باختصار ألقى سؤالاً تلو الآخر ، وعلق على الأجوبة بـ (م م م) .. وهزات رأس .. من ثم عرف كل شىء عن (فلينت) .. ثم وضع الأدلة على المنضدة وقال :

- « لدينا خط الطول وخط العرض ، وقد تم تصحيحها مغناطيسيًا .. هذا يحدد لنا بدقة المأساة .. لدينا الارتفاع والحرارة ودرجة الرطوبة .. وهذه أشياء مهمة لأنها تحدد لنا بدقة تأثير الطقس على مزاج القاتل فى ليلة الجريمة .. »

سادت المكان علامات الإعجاب :

- « بحق القديس (جورج) .. إن الرجل لعميق .. »

- « والآن نسأل الشهود الصامتين .. لدينا حقيبة فارغة .. ماذا تقول ؟ تقول إن السرقة هى الدافع لا الانتقام .. ماذا تقول

أيضًا ؟ تقول إن الجانى محدود الذكاء .. ذو ذكاء مُتَدنٍّ .. لأن أى رجل متوسط الذكاء ما كان ليسرق (باكنر) الذى لم يشتهر قط بحيازة مال .. لكن هل الجانى غريب ؟ فلتتكلم الحقيبة ثانية .. هناك هذه القطعة فيها .. افحصوها .. أنت وأنت .. ثم أعيدوها لى من فضلكم .. إنها قطعة من الكوارتز .. وليس هناك سوى عرق واحد فى هذا الخليج ينتج هذا النوع من الكوارتز .. وأنا لا أراه يومًا بعيدًا حين تنهمر الثروات على المائتى عامل فى هذا المعدن النفيس .. »

ساد المرح القاعة وراح كل واحد يصافح جاره والدموع فى عينيه .

عاد (هولمز) يقول :

- « الآن نرى ثلاث حقائق : الجانى كان محدود الذكاء .. ولم يكن غريبًا .. وغرضه هو السرقة .. الآن أنا أحمل فى يدى جزءًا من فتيل تفوح منه رائحة الحريق .. ما هى شهادته ؟ نستنتج من هذا أن الجانى عامل مناجم .. ونستنتج أيضًا أن القتل تم بالتفجير . وأن المتفجرات كانت جوار الكوخ قرب الطريق .. وفى يدى الآن عود ثقاب من الطراز السويدى الذى يشتعل حين تحكه فى العلبة .. وجدته على بعد ستمائة قدم من الكوخ .. معنى هذا أن الفتيل

اشتعل من هناك .. وبم يخبرنا أيضًا ؟ أن الجانى كان أعسر .. ليس بوسعى تفسير هذا يا سادة .. إن العلامات طفيفة بحيث لا يقدر إلا المران الطويل والخبرة على تفسيرها .. لكننى أؤكد لكم هذا .. وأنتم تعرفون من المجلات البوليسية أن كل سفاح أعسر .. »

قال (هام ساندوتش) وهو يضرب فخذه :

- « بحق (جاكسون) هذا صحيح .. فلتلومونى لو كنت خمنت هذا من قبل .. »

وقال الرجال :

- « انظروا لعينيه ! ما من أحد يقدر على الفرار منه ! »

قال (هولمز) :

- « الآن قطعة الخشب هذه تخبرنا أن الجانى لم يفر .. قطعة الخشب هذه أصابته ودمه عليها .. »

ثم أظلم وجهه وأشار إلى اتجاه معين :

- « هاهو ذا السفاح ! »

للحظة تصلب الجميع ثم هتف عشرون صوتًا :

- « (سامى هيليار) ؟ لا .. ليس هو .. هذا حمق .. »

- « لا تتعجلوا يا سادة .. لاحظوا أن الجرح فوق حاجبه .. »

شحب وجه (هيليار) وراح يتوسل للناس أن يصدقوه ، ويركض يمينًا ويسارًا .. ومد يده لـ (هولمز) وراح يتوسل :

- « لم أفعل .. لم أفعل .. لقد جرحت فى جبهتى حين .. »

صاح (هولمز) :

- « اعتقله يا كونستابل .. فسوف أعلن أمر القبض عليه .. »

تحرك الكونستابل للأمام مترددًا .. ثم توقف .. بينما صاح (هيليار) :

- « (أرشى) .. أنقذنى .. قل لهم كيف أصابنى هذا الجرح .. إن هذا الخبر سيقتل أمى .. »

تقدم (ستيلمان) إلى الأمام وقال :

- « نعم سأنقذك .. لا تخف .. لا تهتموا بسبب الجرح ، فهو لا علاقة له بهذه القصة .. »

ثم نظر إلى الجمع وقال :

- « سأسأل (توم جفريس) أن يقف عند هذا الباب ، والكونستابل (هاريس) عند هذا الباب .. وسأطلب ألا يسمحا لأحد بالخروج من هنا .. »

- « كلامك نفذ .. استمر .. »

- « إن الجانى هنا وسوف تعرفونه حالاً .. والآن أحكى لكم المأساة كلها من بدايتها .. لم يكن الدافع هو السطو بل الانتقام .. لم يكن القاتل محدود الذكاء .. لم يبتعد ستمائة قدم .. لم يضرب فى وجهه بقطعة خشب .. ولم يحضر معه حقيبة .. ولم يكن أعسر .. وباستثناء هذه الأخطاء التافهة ، فإن ضيفنا المرموق كان على حق تمامًا .. »

لم يغير الضيف جلسته الهادئة على حين واصل (ستيلمان) :

- « بل إن لدىّ شهودًا .. »

ثم رفع قطعة من السلك وقال :

- « هناك طبقة ناعمة من شحم الحيوان حولها ، وشمعة احترق نصفها وعليها علامات .. سأخبركم حالاً أين وجدت هذه الأشياء .. سأتخلى الآن عن وضع الأدلة معًا وكل الألعاب المسرحية لمهنة المخبرين .. وأخبركم ببساطة كيف حدث هذا الشىء المؤسف .. »

ثم صمت كى يترك تأثيرًا .. وكى يصل التركيز والانتباه إلى الذروة .. ثم أردف :

- « لقد درس السفاح خطته بعناية .. وكانت خطة محكمة تدل على عقل عبقرى .. فى البداية وضع علامات على شمعة على مسافة بوصات .. ثم أشعلها وقدر زمن اشتعالها .. فوجد أن احتراق أربع بوصات منها يحتاج إلى ثلاث ساعات .. لقد جربت هذا بنفسى من نصف ساعة ..

« بعد هذا وضع القاتل الشمعة فى ماسك شمعة معدنى ، وعند علامة الخمس ساعات صنع فى الشمعة ثقبًا بسلك ساخن .. هذا هو السلك الذى رأيتموه وعليه الشمع ..

« بكثير من الجهد اخترق الأحراش حول كوخ (باكنر) ومعه برميل دقيق فارغ .. وفى قاعة ثبت حامل الشمعة .. ثم قاس نحو 35 قدمًا من الفتيل ، وهى مسافة البرميل من الكوخ .. ثم إنه صنع ثقبًا فى جانب البرميل .. هكذا صار أحد طرفى الفتيل فى كوخ (باكنر) والآخر فى الثقب فى الشمعة .. وقد تم التوقيت ليشتعل فى الواحدة صباحًا .. بشرط أن تشتعل الشمعة فى الثامنة مساء .. وبشرط أن يكون هناك بارود فى الكوخ يتصل بنهاية الفتيل ..

« يا شباب .. البرميل هناك بين الأشجار وبقايا الشمعة فيه .. رأيت كل هذا منذ ساعة بينما الأستاذ هنا يجمع أدلة لا علاقة لها بالقصة .. »

ثم صمت فتنفس الناس بعمق .. وتحررت العضلات مهللة :

- « لهذا كان فى الأحراش .. انظروا له .. إنه ليس أحمق يا أولاد .. »

هنا قاطعه الرجل الخارق :

- « لقد ظفرنا بقصة خيالية جميلة .. جميلة جدًا يا سادة .. الآن هل لى أن أسأل هذا الشاب سؤالاً أو اثنين .. »

قال (فيرجسون) :

- « أعتقد أنه سيوقع به الآن .. »

قال (هولمز) :

- « تعال نتفحص هذه القصة الخيالية بطريقة منظمة .. نربط دليلاً بدليل فى زحف ثابت لا يتقهقر ولا يعتريه الندم نحو قلعة الخطأ المبهرجة هذه .. مصنع الأحلام لخيال بلا خبرة .. لنبدأ يا سيدى أسألك .. هل تفترض أن هذه الشمعة أشعلت فى الثامنة مساء أمس .. »

- « نعم يا سيدى .. حوالى الثامنة .. »

- « هل يمكنك أن تقول الثامنة بدقة ؟ »

- « لا .. لا أستطيع أن أتكلم بهذه الدقة .. »

- « حسن .. لو أن أحدًا مشى هناك فى هذا الوقت لكان محتمًا أن يقبض على القاتل .. ألا ترى هذا ؟ »

- « نعم .. أعتقد هذا .. »

- « شكرًا لك .. هذا كل شىء بالنسبة للحظة الحاضرة .. »

قال (ستيلمان) :

- « أنا كنت هناك فى الثامنة والنصف ، لكنى لم ألق السفاح .. لكنى أعرف أنه فى هذه الحجرة .. وأريد منكم جميعًا أن تمروا أمامى حتى أستطيع أن أرى أقدامكم .. »

امتلأ الجو بالإثارة .. وبدأ تنفيذ الأمر ..

انحنى (ستيلمان) وراح ينظر لأسفل ، محملقًا فى كل قدمين .. مر به خمسون رجلا بلا نتيجة .. ستون .. سبعون .. بدأ الأمر يبدو سخيفًا ، وقال الضيف فى تهكم :

- « يبدو أن السفاحين نادرو الوجود هذه الليلة .. »

بدأ الجميع يرون ما فى الموقف من سخرية .. وبدأ من يتقدمون لعرض أقدامهم يرقصون فى حركات ضاحكة .. فجأة أمسك (ستيلمان) جبينه وهتف :

- « هذا هو السفاح ! »

صاح الناس :

ـ « رباه !! (فتلوك جونز) ؟ »

فى ذروة الصخب رفع الضيف يده آمرًا بالصمت . أدت شخصيته الكاسحة إلى أن يسود الصمت المكان .. ووسط السكون اللاهث الذى عم المكان ، تكلم الضيف بكبرياء قائلاً :

ـ « هذا خطر .. إنه يحكم حياة بريئة .. بريئة فوق الشبهات .. اسمعونى أتكلم .. انظروا كيف أن حقيقة بسيطة ستبدد هذه الكذبة غير المسئولة .. يا سادة هذا الفتى لم يفارق عينى طيلة ليلة أمس .. »

كان تأثير هذا قويًا ، ونظر الناس إلى (ستيلمان) متسائلين .. فقال :

ـ « كنت أعرف أن معه واحدًا آخر ! »

واقترب من الضيف ونظر إلى حذائه وقال :

ـ « أنت كنت معه .. كنت قريبًا منه حين أشعل الشمعة التى فجرت البارود .. بل واستعمل علبة ثقابك .. »

فتح الضيف فمه ليتكلم فلم تخرج الكلمات ..

ـ « هذا .. هـ .. هذا جنون .. »

قال الفتى :

ـ « عود الثقاب الذى وجدته أنا فى البرميل هو ثقاب مكسو بالشمع من نوع لا يمكن أن تجده فى القرية .. وأنا مستعد لتفتيشى للتأكد من أننى لست من وضعه هناك . فهل أنت مستعد ؟ »

راح (هولمز) يفتش فى جيبه .. ثم شحب وجهه وقال :

ـ « أنا أرفض أن أفتش ! »

ساد الصمت لكن كل واحد راح يهمس فى أذن الآخر :

ـ « هذا يوضح الأمور .. لقد صار لقمة سائغة لـ (آرشى) . »

ماذا نفعل الآن ؟ ما من أحد يعرف .. لقد كان موقفًا مربكًا .. والأهم أنه جاء فجأة فلم تتحمله هذه العقول التى لم تتعود المفاجآت ..

تقاربت الرءوس وراحوا يتناقشون .. اقترح البعض أن يتم توجيه الشكر للقاتل على الخلاص من (باكنر) مع إطلاق سراحه .. لكن الأكثر حكمة قالوا إن العقول المتغطرسة فى الشرق ستعتبر هذه فضيحة .. ولسوف يسخر الجميع من حماقتهم .. أخيرًا انتصر رأى الأكثر حكمة وأعلنوا أن (فتلوك) سوف يسجن ويحاكم ..

كان الناس سعداء لانتهاء هذا ؛ لأنهم كانوا متلهفين للذهاب إلى مسرح الجريمة ليروا ما إذا كان البرميل هناك أم لا .. لكن المفاجآت لم تنته بعد ..

كان (فتلوك) طيلة الوقت يبكى فى صمت ، وفجأة انفجر صائحًا فى قنوط :

- « لا ! لاجدوى ! لن أذهب للسجن .. لا أريد محاكمة .. لقد نلت ما أردت من نحس وتعاسة .. اشنقونى الآن وأريحونى .. فهذه هى النتيجة على كل حال .. لقد حكى القصة كأنه كان معى .. ولا أعرف كيف استنتج هذا كله .. لقد قتلت الرجل ، وكان أى واحد منكم سيفعل الشىء ذاته لو أنه عومل ككلب .. من دون صديق يعينه .. »

قال (هام ساندوتش) :

- « وخدمته بإخلاص برغم هذا .. »

هنا جاء صوت يسأل :

- « هل عرف عمك بما تنويه ؟ »

- « لا .. »

- « هل أعطاك الثقاب ؟ »

- « نعم ! لكنه لم يدر بما أنتويه .. »

- « وكيف جازفت بهذا كله وهو معك ؟ أنت تعرف أنه مخبر .. »

تردد الفتى وعبث فى أزراره بشكل مرتبك ، ثم قال بخجل :

- « أنا أعرف المخبرين .. والطريقة المثلى لتجعلهم لا يكتشفون شيئًا ، هى أن تفعل الشىء وأنت معهم .. »

دوى الضحك محييًا هذه الحكمة المحلية ، لكن هذا لم يخفف من ارتباك الفتى ..

★ ★ ★



وفى لحظة كنت بجواره وعلى كتفه وضعت يداً رفيقة .. سقط على الأرض كأنما ضربه البرق ..

9

من خطاب لمسز (ستيلمان) لا يحمل تاريخاً إلا كلمة (الثلاثاء) :

لقد حبسوا (فتلوك جونز) فى كوخ خال .. وتركوه بانتظار المحاكمة .

فى اليوم التالى توجه عدد منا مع (هيليار) ـ على سبيل الصداقة ـ وساعدناه على دفن قريبه ..

أنهينا عملنا وهنا مر جوارنا رجل غريب منهك مغبر يحمل حقيبة ، ورأسه مطأطأ .. هنا تعرفت الرائحة ! الرائحة التى طاردتها عبر الكرة الأرضية .. كانت كرائحة الجنة بالنسبة لآمالى المتلاشية ..

وفى لحظة كنت بجواره وعلى كتفه وضعت يدًا رفيقة .. سقط على الأرض كأنما ضربه البرق ، وإذ جاء الشباب يركضون ركع على ركبتيه وضم يدين متوسلتين ، ومن بين كفين مرتجفتين توسل إلى أن أكف عن ملاحقته وقال :

ـ « لقد طاردتنى عبر العالم يا (شيرلوك هولمز) .. لكن الله يشهد على أننى لم أؤذ إنساناً قط .. »

نظرة لعينيه أخبرتنا أن الرجل مجنون .. هذه نتيجة عملى يا أماه ! إن سكرات موتك ربما تريك يومًا ما شعرت به فى هذه اللحظة ..

ساعده الشباب على النهوض ، وشعرنا بالشفقة من أجله .. وقلنا له أرق وأفضل الأشياء .. وقلت له أن يُبشر ولا يخاف .. لقد صار بين أصدقاء الآن . ولسوف يعنون به .. ولسوف يشنقون أى رجل يحاول إيذاءه ..

إن عمال المناجم يكونون كالأمهات حين تحرك الجانب الجنوبى فى قلوبهم ويصيرون أطفالاً مستهترين غير متعقلين حين تحرك الجانب الآخر من قلوبهم . وقد جربوا كل حيلة لديهم كى يسعدوا قلب الغريب بلا جدوى ، إلى أن قال رجل (ويلز فارجو) :

- « إن من يثير قلقك هو (شيرلوك هولمز) .. فلا تقلق .. »

- « ولماذا ! »

- « لأنه مات من جديد ! »

- « مات ؟ لا تمزح مع بائس مثلى .. هل هذا الرجل يحكى الصدق ؟ »

قال الرجال بصوت واحد :

- « لقد شنقوه الأسبوع الماضى فى (سان برناردينو) .. بينما كان يبحث عنك .. حسبوه رجلاً آخر .. إنهم آسفون لكنهم لا يستطيعون تصحيح الخطأ الآن .. »

وقال (هام ساندوتش) بلهجة من شارك فى الأمر :

- « هم يبنون له نصبًا تذكاريًا الآن .. »

أخذ (جيمس ووكر) شهيقًا عميقًا ، ولم يقل شيئًا لكن عينيه فقدتا ما فيهما من توحش .. واسترخى وجهه بعض الشىء .. وقد أخذناه لكوخنا وقدمنا له أفضل عشاء استطعنا طهوه ..

ثم قدمت له أنا و(هليار) ثيابًا جديدة تمامًا .. حتى صنعنا منه سيدًا مسنًا .. (مسن) هى الكلمة المناسبة .. تناسب ذبوله وبياض شعره .. برغم أنه ما زال فى منتصف العمر لو حسبت الأمر بالسنين ..

جلسنا ندخن ونتكلم ، وحين انتهى من طعامه .. عاد له صوته .. وبدأ يحكى قصته بكامل إرادته . سأحاول أن أحكيها قدر الإمكان :

قصة الرجل الخطأ

بدأ الأمر كذا : كنت فى (دنفر) .. فجأة تلقيت مذكرة تنذرنى بوجوب الرحيل ، وإلا افتضح أمرى بصدد ارتكابى جريمة مريعة منذ سنوات طويلة فى الشرق ..

كنت أعرف قصة هذه الجريمة ، لكنى لم أقترفها .. كان هذا ابن عم لى يحمل الاسم ذاته .. ماذا أفعل ؟ كان الرعب يبلبل عقلى ولم أدر .. والوقت المسموح لى به قصيرًا جدًا لا يتجاوز يومًا .. فلو أذيع الخبر لشنقونى من دون محاكمة .. وكالعادة حين يعرفون أنهم أخطئوا سيعتذرون كما حدث مع مستر (هولمز) ..

لذا قررت أن أبيع ما أملك وأفر حتى ينتهى الموضوع .. فررت فى الليل وعشت فى الجبال باسم مستعار ..

ازداد قلقى .. وصرت أشعر بأننى مراقب طيلة الوقت ، وفى النهاية كان على أن أستسلم ..

كنت مرهقًا .. وصارت الشكوك تطاردنى فى الليل والنهار .. ثم جاء الأسوأ .. ذات ليلة قالت الهمسات لى :

- « لن ننجح لأننا لا نراه .. من ثم لن نستطيع تمييزه وسط الزحام .. »

فقال واحد :

- « إذن نطلب (شيرلوك هولمز) .. يمكنه أن يصل خلال اثنى عشر يومًا .. »

تحطم قلبى لأنى قرأت عن هذا الرجل .. وعرفت معنى أن يقتفى أثرى .. بطاقته التى لا تهمد ..

لقد أرسلت الأرواح تستدعيه ، وكان على أن أفر فى الظلام .. ليس معى من متاع إلا الحقيبة التى وضعت فيها مالى .. وكان الرجل قد وصل واستطاع أن يتتبع أثرى ..

لقد ظل يلاحقنى عبر العالم ثلاثة أعوام ونصف عام .. فى المحيط الهادى .. فى أستراليا .. فى الهند .. لكنى كنت أرى اسمه دومًا فى سجلات الفنادق ، وكان ينسى ويكتبه ثم يشطبه ويكتب فوقه اسمًا آخر ..

لقد منحنى أسوأ أوقات حياتى ، لكنى أقسم لكم إننى لم امسسه بسوء لا هو ولا أى رجل سواه ..

* * *

كانت هذه نهاية قصة الرجل ، وقد أثرت كثيرًا فى الشباب .. وبالنسبة لى كانت كل كلمة تحرق ثقبًا فى قلبى إذ تصطدم به ..

قررنا أن يبيت الرجل معنا ويكون ضيف (هيلبار) .. أما عن نفسى فسأنتظر حتى يستريح وينال ما يحتاج إليه من تغذية ، ثم آخذه على (دنفر) كى أعيد انتعاش أحواله المالية .

صافح الشباب الرجل مصافحة عمال المناجم الحارة التى تهشم العظام ، ثم تفرقوا لينشروا الخبر .

وعند الفجر نادانا (هام ساندوتش) ورجل (ويلز فارجو) وقالا :

- « أخبار هذا الغريب والطريقة التى عومل بها قد انتشرت .. وقد قررنا أن نشنق الأستاذ .. لكن الكونستابل (هاريس) أحمق وقد اتصل بالشريف .. هلموا ! »

بدأنا الجرى .. لكنى تمنيت أن يصل الشريف فى الوقت المناسب .. إذ شعرت برغبة واهية داخلى فى أن يشنق (هولمز) عقابًا له على خطاياى أنا .. لقد سمعت عن الشريف لكنى سألت على سبيل الاطمئنان :

- « هل يمكنه أن يوقف حشدًا ؟ »

- « يوقف حشدًا ؟ تسأل هل يستطيع (جاك فيرفاكس) أن يوقف حشدًا ؟ أنت تجعلنى أبتسم .. الخارج السابق على القانون الذى قتل تسعة عشر رجلاً .. هل يستطيع ؟ »

كانت الصرخات تتعالى من بعيد ، وازدادت قوة إذ دنونا .. على شكل موجات تتعالى .. الآن صارت الضوضاء مما يصم الآذان .. لقد أمسك بعض الفتوات من عصابة (دالى) بـ (هولمز) لكنه أكثر الرجال هدوءًا فى المكان .. فقط ابتسامة ازدراء على شفتيه ، ولو كان هناك أى خوف من الموت فى قلبه البريطانى ، فإن قوة عزيمته سيطرت عليه ..

قال أحد رجال عصابة (دالى) :

- « هلموا للتصويت يا رجال .. شنق أم رمى بالرصاص ؟ »

صاح أحد رفاقه :

- « لا هذا ولا ذاك .. سيعود للحياة بعد أسبوع كالعادة .. الحرق هو الحل الأمثل له .. »

وافق الجميع على هذا ، واحتشدوا حول السجين صائحين :

- « نعم .. النارَ .. النار هى تذكرته للعالم الآخر ! »

وجروه إلى مربط الخيول وقيدوه ، وكدسوا حوله الحطب حتى الخصر .. لكن الوجه القوى لم يشحب ..

- « هاتوا ثقابًا .. ثقابًا ! »

أشعل الرجل ثقابًا وداراه من الريح بيده .. ثم وضعه تحت قطعة من الخشب .. ساد صمت رهيب .. لقد اشتعلت قطعة الخشب لدقيقة .. هنا سمعت صوت حوافر من بعيد ..

ازداد الصوت وضوحًا .. ازداد تميزًا لكن لم يبد أن أحدًا من الواقفين قد سمعه .

انطفأ الثقاب .. فأشعل الرجل آخر ، ومن جديد ارتفع اللهب ، لكنه فى هذه المرة أمسك بالخشب .. ووقف الجلاد يراقب المشهد والثقاب ما زال فى يده ..

الآن صار صوت الحوافر كالرعد .. وفى اللحظة التالية دوت صرخة :

ـ « الشريف !! »

وسرعان ما وصل ، وقد وقف حصانه على قائمتيه الخلفيتين وهتف :

ـ « تراجعوا أيها الحثالة !! »

نفذ الجميع إلا قائدهم ، الذى وقف فى ثبات ويده على مسدسه .. فصاح به الشريف :

ـ « أنزل يدك .. اركل النار لتطفئها .. وحرر الغريب !! »

أطاع الرجل .. ثم ألقى الشريف خطبة على ظهر حصانه . ولم يحاول إضفاء أى بريق على كلماته بل قالها بشكل مدروس محكم :

ـ « أنتم مجموعة لطيفة .. إذ تأتون مع (شادبلى هجنز) هذا الجبان فاحش القول ، الذى يطلق النار على الناس من ظهورهم ثم يعتبر نفسه (دسبيرادو) .. لو كان هناك شىء أحتقره فعلاً فهو الشنق بلا محاكمة .. هذا عمل خال من الرجولة أن أرى مائة رجل على واحد فقط .. مائة جبان من مجتمع جبان بدوره ، وفى تسع وتسعين بالمائة من المرات يكون الشريف جبانًا آخر .. »

وصمت قليلاً كأنما يجتر العبارة ويتلذذ بمذاقها على لسانه ، ثم أردف :

ـ « رباه ! لكم تفزعنى فكرة رجل بالغ جبان يخاف من الجماهير الغاضبة ! »

ونظر إلى الأسير وقال :

ـ « من أنت أيها الغريب .. وماذا كنت تفعله ؟ »

ـ « اسمى (شيرلوك هولمز) .. ولم أفعل شيئًا .. »

كان أثر الاسم مذهلاً على الشريف .. تكلم بحرارة وقال إنها لوصمة عار على البلاد أن تحدث فضيحة كهذه تحت علم النجوم والشرائط ، لرجل طبقت شهرته الآفاق .. واستلبت قصصه قلوب القراء فى أرجاء المعمورة ..

اعتذر له بصفته يمثل الولايات المتحدة كلها ، وانحنى لـ (هولمز) فى رشاقة .. وأعلن أن الكونستابل سيكون مسئولاً لو ضايقه أحد ثانية .. ثم استدار للجمع وقال :

- « عودوا لجحوركم أيها القذرون ! »

وكذا فعلوا .. ثم قال :

- « اتبعنى يا (شادلبى) .. سأتولى قضيتك بنفسى .. أبق سلاحك .. فلو جاء اليوم الذى أخشى فيه أن تمشى ورائى بهذا الشىء معك ، فأنا جبان آخر .. »

ومشى ووراءه (شادلبى) ..

حين عدنا إلى كوخنا ، وقد دنا وقت الإفطار .. سمعنا أن (فتلوك) قد فر من محبسه فى الليل ..

لم يتأسف أحد لهذا .. دع عمه يبحث عنه لو أراد هذا .. فالمعسكر لا يبالى بالموضوع ..

* * *

10

بعد عشرة أيام

إن (جيمس ووكر) بخير حال الآن ، وعقله يتحسن كذلك .. ..

سأنطلق معه إلى (دنفر) صباح غد ..

ملحوظة قصيرة : بينما نحن نتحرك هذا الصباح ، همس لى (هيليار) :

- « أبق هذه الأخبار بعيدة عن (ووكر) حتى تتأكد من أنك لن تصيب عقله بأذى ، لقد ارتكبت تلك الجريمة التى تكلم عنها ، والذى ارتكبها ابن عمه .. لقد دفنا المجرم الحقيقى .. أتعس رجل منذ قرن كامل .. (فلينت باكنر) .. اسمه الحقيقى كان (جاكوب فولر) .. »

هكذا ترين يا أماه .. لقد صار زوجك وأبى فى قبره .. فدعيه يسترح هناك .

مارك توين

مكتبة متكاملة
لأشهر الروايات العالمية

روايات عالمية للجيب

حكايات مارك توين

فى القصة الأولى نرى كيف فسدت (هادلبرج) البلدة التى لا رأس مال لها إلا الشرف .. كيف ؟ .. (مارك توين) يعرف .. فى القصة الثانية نرى الفتى يطارد أباه عبر الكرة الأرضية لينتقم .. لماذا ؟ .. (مارك توين) يعرف .

49





العدد القادم
١٩٨٤

الثمن فى مصر ٢٥٠ مـ
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم